

وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية لكتاب
منشورات الطفل

سلسلة أعلام للناشئة
العدد
«٤»

الملك الظاهر بيبرس

د. عماد الدين غانم

الملك الظاهر بيبرس

تصميم الغلاف

رفـاه الحـو

د. عماد الدين غانم

الملك الظاهر بيبرس

الهيئة العامة السورية للكتاب - منشورات الطفل
وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١١م

الملك الظاهر بيبرس / عماد الدين غانم . - دمشق: الهيئة
العامة السورية للكتاب، ٢٠١١م . - ١٤٤ ص؛ ٢٠ سم . -

(سلسلة أعلام للناشئة؛ ٤)

٢ - ٩٢٣,١: الظاهر بيبرس غ ٢ - ٩٥٦,٠٦ غ ا ن م
٣ - العنوان ٤ - غانم ٥ - السلسلة

مكتبة الأسد

سلسلة أعلام للناشئة

« ٤ »

M

ماذا يجدر بنا أن نستحضر ونحن نقدم الملك الظاهر بيبرس إلى أجيالنا الصاعدة؟ هل نبرز صورة الفتى الذي شَرّد الغزوُ المغولي قبيلته وأهله، وكان مصيره الاسترقاق بعيداً عن أهله وموطنه، ليجد بعدئذ في الشام ومصر موطناً جديداً يرتقي فيه أعلى المناصب، ويحقق أمجاداً سياسية وعسكرية، لم يحققها سوى قليلٍ من القادة التاريخيين، ويصبح رمز مرحلة مضيئة في تاريخ كفاح الوطن العربي ضد الغزاة والمستعمرين؟

هل نرى فيه الشاب الذي لا يرضخ للتحديات المأساوية، ويعمل بكل تصميم وتبصُّرٍ وتضحية لمجابهة التحديات وجبروت الأعداء، فيهزمهم بالصمود والمقاومة ؟

هل نستعرض ما كانت عليه البلاد من تجزئة وكيانات متناحرة لا يدرك بعضها حجم الخطر الذي يشكله الغزو

الخارجي بشقيه الصليبيّ والمغوليّ؟ كيف رفض الملك الظاهر بيبرس هذا الواقع، فجعل من مصر والشام نواة لوحدة أوسع شملت أيضاً الحجاز واليمن وأجزاء من السودان وبرقة؟

هل ننظر إليه قائداً لمسيرة التحرير؟ أليس هو الذي طَهَّرَ الشام من المغول، وحَرَّرَ جميع أرجاء الشام منهم، وحال دون عودةِ الخطر المغولي على مدى عقود، وانتزع أنطاكية من الاحتلال الصليبي وحررها من الاستعمار الاستيطاني الذي استمر متحكماً بمقدراتها على مدى ١٧٠ عاماً ؟

هل ننظر إليه فارساً دائب الحركة، عرف بأنه كان يلعب الكرة (البولو) في القاهرة في أول الأسبوع، ليظهر في ميدان دمشق في آخر الأسبوع، وهو يمارس هذه الرياضة؟

هل ننظر إليه دبلوماسياً، أم استراتيجيّاً؟ هل ننظر إلى أعماله العمرانية، أم إلى حرصه على أمن المواطن وأمانه، أم إلى اهتمامه بالفقراء ، أم إلى روح العدالة والإنصاف لديه، وحضوره مجالس المظالم، أم إلى حسن تعامله مع العلماء؟ أم إلى جبروته وشدته في محاسبة المتخاذلين أو المتآمرين، لا بل إلى تعسفه في ذلك ؟

هل نتلمَّس صورته من خلال سيرته الشعبية التي ظل الرواة (الحكواتية) يحيون السهرات بسرد أحداثها على مدى قرون، ويتحزبون لأبطال سيرة الملك الظاهر؟

إن الملك الظاهر بيبرس قائد تاريخي في مرحلة حاسمة من تاريخ أمتنا. لقد استطاع أن يبحر في خضم أحداثها، وأن يصل بها إلى برٍ آمن، وأن يمهد لمن أتى بعده، كي يواصل مسيرة التحرير وبناء الدولة. فكان رفيقه وأحد قادته، الملك المنصور سيف الدين قلاوون، وابنه الملك الأشرف خليل، من رواد تحرير الوطن من الاستعمار الاستيطاني الصليبي، والقضاء على آخر بؤرة له على ترابه، ولجم الخطر المغوليّ.

بيبرس القفجاقي

ما هو أصل بيبرس؟ أين ولد؟ ومتى؟ ماذا عن نشأته وتبلور شخصيته ؟ من هم القفجاق وأين بلادهم ؟ ولْنبدأ بالسؤال الأخير ثم نتناول الأسئلة الأخرى بالتدريج.

يُطلق على السهوب التي تقع شمال البحر الأسود وفي الشمال الشرقي منه، وبالأحرى جنوب روسيا، اسم فصيل ضخم من القبائل التركية هم القفجاق أو القبجاق الذين استوطنوا هذه السهوب منذ العصور القديمة، وعرفهم الأوربيون باسم الكومان. إلى هؤلاء ينتسب بيبرس، وفي بلاد القفجاق ولد وقضى فترة الطفولة وسن الفتوة على الأقل.

وتتضارب الآراء حول تاريخ ميلاده، فمن قائل إنه ولد في ٦١٧هـ / ١٢٢٠م، إلى زاعم أن ولادته كانت سنة ٦٢٠هـ/١٢٢٣م. وفي رواية لرفيقه الصميمي بدر الدين بيسرى أن ميلاده كان في العام ٦٢٥هـ/١٢٢٧م. وإذا سألنا عن المدينة أو القرية التي أبصر فيها النور لأول مرة فقلّما

نحصل على إجابة واضحة. ولذلك نكتفي بالقول إن أصله تركي من بلاد القفجاق.

وقليل ما نعرفه عن والديه والبيئة التي نشأ فيها. فصاحب هذه الانتصارات الحاسمة والمجيدة الذي بلغ أرفع المناصب في الدولة المملوكية، ويعتبر المؤسس الحقيقي لها، والذي تربع على عرش السلطنة فيها على مدى نيف وسبعة عشر عاماً؛ لا نعرف له نسباً موثوقاً. وفي حالات قليلة يذكر أن اسم والده عبد الله.

غير أن سيرة الملك الظاهر بيبرس، التي كانت خبز الرواة (الحكواتية) في السهرات، تجعل بيبرس سليلَ بيت ملكي، وتزعم أنه ابن الخان شاه جمك من السيدة آبق، وكان أبوه ملك خوارزم العجم، وأن مولده في الدربون، وأن اسمه محمود. وتضفي عليه صفات الفطنة والوجه الحسن، وإذا غضب يكون بين عينيه شعرة أسد. كما تشير السيرة إلى أنه كان يحفظ القرآن، وأن كل من يراه كان يتنبأ له بمستقبل عظيم، وأن اتخاذه اسم بيبرس يعود إلى أن زوجة تاجر قد منحته حنانها وما تملكه، لأنه يشبه ابناً لها اسمه بيبرس ولكنه مات وحزنت عليه كثيراً، وهو يشبهه كما تشبه قطرة الحليب القطرة الأخرى. وبيبرس يعني بالتركية «أمير فهد»،

وهو الاسم الذي عرف به يضاف إليه أسماء من امتلكوه. إذ إنه خضع للرق وهو فتى، إلى جانب ألقاب أخرى.

وأشمل صيغة لاسمه هي : الملك الظاهر ركن الدين أبو الفتح (الفتوح) بيبرس البندقداري الصالحي النجمي.

ولكن ما الذي جعل بيبرس ينتقل من بلاد القفجاق إلى بلاد الشام، ومن ثم إلى مصر، ومتى حدث ذلك وكيف ؟

لقد شهد وسط آسيا في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي تطورات خطيرة أسفرت عن نتائج سريعة غيرت الأوضاع جذرياً في بلاد ما وراء النهر والمناطق التي تليها غرباً. فقد انطلق التتار (المغول) على ظهور خيولهم السريعة تحت زعامة جنكيز خان من موطنهم في البوادي الباردة نحو المنطقة الحضرية الشهيرة عند العرب باسم بلاد ما وراء النهر. وهي البلاد التي اشتهرت من مدنها مرو، وبخارى، وسمرقند، وطشقند، فاستَوْلَوْا عليها وحطموا الدولة الخوارزمية التي كانت تشكل حاجزاً أمام التحركات المغولية.

وما إن سقطت هذه الدولة القوية حتى تبدل ميزان القوى، وسقطت العوائق التي كانت تحول دون تقدم المغول نحو

فارس وأراضي الخلافة العباسية، ومناطق البحر الأسود وروسيا. في إطار هذه التطورات أصبحت سهوب القفجاق (شمال كازاخستان حالياً) مهددة.

وفي عام ٦١٩هـ/١٢٢٢م أمر جنكيز خان قائده سوبوداي بالتوجه على رأس حملة أولى إلى سهوب القفجاق، فوصلت هذه الحملة حتى شبه جزيرة القرم. ونتيجة لهذا الخطر المتزايد قررت القبيلة التي ينتمي إليها بيبرس أن تغادر بلادها إلى منطقة أقل خطراً، فالتمست من أنس خان زعيم إحدى القبائل التركمانية، أن يسمح لها بالعبور إلى صوداق (القرم)، وذلك إنقاذاً لهم من جحافل المغول. فاستجاب لطلبهم وأنزلهم وادياً بين جبلين. وكان عبورهم في عام ٦٤٠هـ/١٢٤٣م.

ولما اطمأن بهم المقام غدر بهم أنس خان، وشَنَّ عليهم غارة فقتل منهم وسبى. وينقل عن بدر الدين بيسري، رفيق بيبرس، وربما كان أَخاه في الرضاع، قوله : «وكنت أنا والملك الظاهر فيمن أسر، وكان عمره وقتئذ ١٤ عاماً تقديراً، فبيع فيمن بيع، وحمل إلى سيواس، ثم افترقنا، واجتمعنا في حلب في خان ابن قليج .....».

وهكذا، فإن بيبرس كان ممن تعرضوا للسبي، وحمل وهو فتى خاضع للرق إلى أسواق الرقيق في الشام. ويقال إنه كان طويل القامة، جهوري الصوت، أسمر البشرة، أزرق العينين، في إحداهما بقعة بيضاء صغيرة وقد عُدّ هذا البياض في عينه عيباً. ويبدو أنه بيع بسعر بَخْسٍ بسبب ذلك، ولم يبلغ ثمنه غيرَ ٨٠٠ درهم (حوالي ٤٠ ديناراً)، بينما بلغ سعر قلاوون ألف دينار، وهو الذي تولى السلطنة بعد إزاحة ابن الملك الظاهر الثاني من سدة الحكم.

والذي اشتراه في دمشق تاجر يدعى العماد الصائغ، وربما قام بعدئذ بعرضه مع مملوك آخر على المنصور محمد، ملك حماه الشابِّ الذي عُرف عنه أنه كان يستأنس برأي والدته عند اختياره لمماليكه، فإذا أشارت بابتياعه أخذ المملوك. وعندما عُرض بيبرس ورفيق له على ملك حماه رأتهما والدة المنصور من خلف الستار. استأذنها بشرائهما فقالت له: «خذ المملوك الأبيض، والأسمر (بيبرس) لا يكون بينك وبينه معاملة، فإن عينيه فيهما الشر لايح». فردَّهما على التاجر. ثم اشتراهما الأمير علاء الدين أيدكين البندقداري، أحد قادة الملك الصالح أيوب، وفُتِحَ بذلك أمام بيبرس باب الخدمة لدى أعيان الدولة، ثم اختاره الملك

الصالح المذكور ليضمه إلى مماليكه الخاصة الذين عرفوا باسم المماليك البحرية.

وهذا التغير في ملكية بيبرس يظهر في صيغة اسمه؛ إذ أصبح يدعى ركن الدين بيبرس البندقداري الصالحي. ويبدو أن بيبرس قد اجتذب انتباه سيده الجديد، فسرعان ما أصبح من كبار رجال الملك الصالح الذي أعتقه من الرق ومنحه الحرية لِمَا لَمَسَ لديه من كفاءات وفروسية.

ولكي يتسنى لنا تتبع المراحل التي مَرَّ بها بيبرس، والأحداث التي حملته إلى سدة الحكم في الدولة المملوكية يجدر بنا أن نقدم نبذة عن تطور الأوضاع في الدولة الأيوبية بعد صلاح الدين، وخاصة في عهد الملك الصالح أيوب.

من مملوك إلى قائد عسكري

وسياسي بارع

المملوك (جمعها مماليك) عبد يباع ويشترى، إلا أنه بمرور الزمن أصبح هذا الاسم يطلق في الدول الإسلامية المتأخرة على فئة من الرقيق الأبيض يشتريهم الحكام من أسواق النخاسة لتكوين فرق عسكرية خاصة تنضم إلى الجيش أثناء الحرب. ثم أصبحوا الأداة الحربية الوحيدة، بل والأداة السياسية في الدولة المملوكية.

والرق ظاهرة قديمة جداً، وظلت سائدة حتى العصر الحديث في مناطق ومجتمعات عديدة من العالم. وكانت تجارة الرقيق رائجة، يتولاها التجار النخَّاسون، ولها شبكات في جميع أرجاء العالم. وقد ساعدت موجات من القحط والغلاء والفقر على اضطراد وجود الرق في المجتمع، ولكن

السبب الرئيسي يعود، قبل كل شيء، إلى الحروب وأعمال السبي التي تتبعها.

ويشكل الرقيق جزءاً أساسياً من غنائم الجيش المنتصر. وكانت أسواق الرقيق في المدن تعرض فيها البضاعة البشرية، وغالباً ما كان النخَّاسون يتنافسون في اقتناء الغلمان والفتيات . وكان للجارية الجميلة والغلام الوسيم أسعار رفيعة، أما المشترون فكانوا من الخلفاء والملوك والوزراء والمتنفِّذين، وهم دوماً المقصودون بهذه البضاعة البشرية التي لم يتخذوها للخدمة والتسرِّي فحسب، بل وحرصوا أيضاَ على تنشئة الفتيان وإعدادهم للخدمة العسكرية، ومنهم تشكّلَ المماليك.

وعادةً ما كان المماليك يؤخذون من الترك، والشركس، والروم، والصقالبة، والزنج، والأحباش. إلا أن الرقيق الأكثر رواجاً في الدول الإسلامية كانوا من الأتراك والشركس، وذلك لما يتصفون به من جمال وطيب مجلس، ولِمَا ابتُلِيَت به بلادهم من غارات وحروب طاحنة. فكانوا يجعلونهم جنوداً في قوات الحكام الخاصة، ويعتمدون على ولائهم للحاكم شخصياً، فيتولى تنشئتهم وفق معايير جرى تطويرها مع الزمن.

*** نشأة ظاهرة المماليك**

اعتمدت الخلافة العباسية على العنصر التركي في تدعيم جيشها، فكان المعتصم أبرز من لجأ إلى ذلك. واعتمد الفاطميون على الترك والصقالبة والسود، بينما تركز اعتماد الأيوبيين على المماليك الترك في الفروسية، وأكثروا من شرائهم حتى بلغ عدد المماليك الذروة في عهد الملك الصالح أيوب (٦٣٦ - ٦٤٧هـ/١٢٣٨ - ١٢٥٠م)، إذ رأى أن تثبيت ملكه لا يكون إلا بجنود جدد، فزادت مشترياته من الأرقاء الأتراك، خصوصاً ممن كانوا صغار السن. ونظم تنشئتهم تنشئة عسكرية، وبنى لهم قلعة خاصة في جزيرة الروضة في النيل، ليقيموا فيها ولا يبرحوها، وأطلق عليهم اسم المماليك البحرية، واتخذ منهم أمراء دولته وخاصته وبطانته وحراسه، وكانوا أقل من ١٠٠٠ مملوك.

*** تنشئة المماليك**

هؤلاء الفتيان الذين حرموا من العيش في ظل الأسرة وجدوا في الأمير أو الملك بديلاً عن الأب يهبونه ولاءهم أو يكيدون له، وكانوا يخضعون لتربية عسكرية تمر بثلاث مراحل تتسم كل منها بما يلي:

المرحلة الأولى : تبتدئ من الصغر، وتمتد إلى بلوغ سن الرشد. إذ يوضع هؤلاء الصغار في الطباق (دور مخصصة لسكن المماليك)، وعادة ما ينزل كل مملوك في الطبقة المخصصة لإيواء المماليك من أبناء جنسه تحت إشراف الآغوات، أو الطواشيه (الخصيان) أو الزمّامين (المشرفين على تربية المماليك السلطانية)، ويقومون بتمرينات رياضية سهلة، ويُعلّمون القراءة والكتابة، ويُلَقَّنون آياتٍ من القرآن الكريم، ودروساً دينية، ويُعَوَّدون على الصلاةً، ويُحَفَّظون بعض الأدعية لتلاوتها. ويُحَبَّبُ إليهم الدين والذود عنه والتخلق بجميل الأخلاق.

المرحلة الثانية : وتبدأ من سن البلوغ، حيث يؤخذ المملوك بكل شدة، فلا يجوز التسامح معه إذا غلط أو هفا أو بدا منه شذوذ خلقي، بل يعاقب على ذلك بكل قسوة. ويُقسَّمُ المماليك إلى طوائف، وتوكل كل طائفة إلى معلم ماهر. فَيُمَرِّنَهم على السباحة، واللعب بالسيف، والضرب بالرمح، والقذف بالأطواق، وركوب الخيل، والعدو على ظهورها، والمبارزة، ورمي النشاب، ولعب الكرة، وقد تكون على ظهور الخيل. ولم يكن ممنوعاً أن ينقطع المملوك أثناء وقت

فراغه إلى مطالعة كتب العلم والأدب. ولذلك قد يتفقّه أحدهم في الدين، أو ينظم الشعر ويجيد الكتابة. ونهاية هذه المرحلة غير محدودة بسن، بل بظهور مهارة المملوك ومواهبه ونضوج خواصه. وفي المرحلتين لم يكن يسمح للمملوك أن ينزل إلى المدينة، ولا أن يختلط بأهلها، ولا أن يتزوج قبل أن يُعتَقَ من الرق.

المرحلة الثالثة : إذا برزت موهبة المملوك وعرفت مقدرته وشدة حيلته وشجاعته وحسن بلائه في الرياضة العسكرية يعرض ويشترك في سباق أو مبارزة أو حفل أو لعب، ثم يُساق إلى عداد المحاربين. وتكون مكافأته أن يُعتَقَ من الرق، وتُرَدّ إليه حريته، ويُوكَلَ إليه أمر وظيفة من الوظائف الصغيرة، ويُكتَبَ له إقطاعها.

والإقطاع جزء من الأرض يستغله صاحبه كما يشاء. أو قد يُفرض له مال، ويمنح خيلاً وقماشاً، وكُلَّ ما يساعده على النهوض بحياة حرة جديدة. ويظل جندياً موظفاً يترقى في سلك وظائف الجندية حتى يبلغ الإمارة فيمنحه السلطان لقب أمير. ثم يترقى في سلكها حتى يصل إلى كبريات وظائف الدولة. وقد تَقْذِفُ به الحظوظ فيصبح سلطاناً.

ونظراً لأن هؤلاء المماليك أرقاء، ومنهم أمراء وسلاطين. والأرقاء لا يُنسَبُون عادةً إلى آبائهم، فقد نُسِبَت أغلبيتهم إلى غير الآباء والأجداد، بل كان الواحد منهم يُنسَبُ إمَّا إلى من اشتراه من السلاطين والأمراء، مثل فارس الدين أقطاي الصالحي نسبة إلى الملك الصالح أيوب، أو إلى المبلغ الذي اشترى به مثل قلاوون الألفي أي الذي اشْتُرِيَ بألف دينار. كما قد ينسب المملوك إلى أكثر من شخص ممن تداولوا ملكه، وقد ينسب إلى البائع والشاري معاً، مثل بيبرس البندقداري الصالحي.

ولنكتفِ بما قلناه عن ظاهرة المماليك وتنشئتهم، ولْنَعُدْ إلى الفتى القفجاقي بيبرس، ولْنَسْأَلْ إذا ما كان يعرف شيئاً عن البلاد التي نُقِلَ إليها، وهي بلاد الشام (سورية الطبيعية التي تضم سورية الحالية ولبنان وفلسطين والأردن) ومصر التي تبعد عن القفجاق أكثر من ألفي كيلو متر، ومسيرة حوالي شهرين مع الاستراحات.

والأكيد أنه مهما كان شأن معرفته بتلك البلاد، فإنها لم تكن تزيد عن معلومات عامة لا يعرفها سوى قليل، وربما تنحصر في أهل العلم. لقد كانت علامات النجابة تبدو على الفتى بيبرس الذي أخذ يشكل معلوماته عن موطنه الجديد في

الشام ومصر وهو في طريقه إليها عبر سيواس، ثم بعد وصوله إلى حلب ونزوله في خان ابن قليج .

❖ أوضاع البلاد كما رآها الفتى بيبرس

لا شك في أن بيبرس، وهو في طريقه من سيواس إلى حلب، مَرَّ في أراضي إمارة أنطاكية الصليبية أو قربها، وأدرك أن الصليبيين يحتلون الواجهة البحرية لبلاد الشام بأجمعها، وأن الاحتلال الصليبي لم يقتصر على السواحل والسفوح الجبلية المتاخمة للشريط الساحلي في بلاد الشام بل شمل أيضاً في بداية الغزو الصليبي المناطق الممتدة بين أنطاكية وشرقي الفرات، وكانت تدعى إمارة الرها. وكانت الكيانات الصليبية تتألف من ثلاث إمارات هي: الرها، وأنطاكية، وطرابلس، ومن مملكة القدس التي تحتل كلها مجتمعة منطقة يبلغ طولها ٧٥٠ كم، ويبلغ أقصى عرض لها في مملكة القدس حوالي ١٥٠ كم. وقد فتح عماد الدين الزنكي إمارة الرها في عام ٥٣٩ هـ / ١١٤٤م وأُطلِقَ على عملية تحريرها اسم فتح الفتوح. وبلغ بيبرس أن صلاح الدين الأيوبي قد هزم الجيوش الصليبية في معركة حطين ٥٨٣ هـ/ ١١٨٧م، وقضى قضاءً تاماً تقريباً على مملكة

القدس الكيان الصليبيّ الأقوى، وحَرَّرَ مدينة القدس، وحَجَّمَ إمارتي طرابلس وأنطاكية، وأن بعض فتوح صلاح الديـــن\، ومنها القدس، جرى تسليمه ثانية للصليبيين.

عندما وصل بيبرس إلى حلب كانت أصداء النزاعات بين الحكام الأيوبيين ما زالت قائمة. لكنها لم تلبث أن حسمت وأصبح الملك الصالح نجم الدين أيوب الشخصية الأبرز في مصر والشام. فقد تولى في عام ٦٣٧ هـــ/١٢٤٠م حكم مصر إلى جانب الجزيرة الفراتية، ثم استطاع السيطرة على دمشق، واستعاد القدس من الصليبيين في العام ٦٤١ هـــ/١٢٤٤م .

كان بيبرس يعلم أن بلاد الشام شهدت حَراكاً سياسياً بعد نجاح الغزو الصليبي في تأسيس كيانات استعمارية استيطانية. وتمثل هذا الحَراك في رفض النزاعات الداخلية والتشرذم السياسي، ورأى قادته أن الوحدة والانسجام الداخلي أساسيان لإمداد حركة الجهاد ضد المحتلين الفرنجة. وقد تبنى هذا الخط ثلاثةٌ من القادة الأفذاذ هم : عماد الدين زنكي، وابنه نور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي. وبفضل هذا الخط الوحدوي الجهادي تحققت الانتصارات، وأرسيت الأسس الضرورية لصد الغزاة وبدء مسيرة التحرير. وهو الخط نفسه الذي تبناه بيبرس فيما بعد، فناضل في سبيل توحيد البلاد وتحريرها وعمرانها.

❖ ترقّي بيبرس في ظل الملك الصالح أيوب

فلنتذكر أن المملوك بيبرس اشتُرِيَ أولاً في دمشق، ثم عُرِضَ في حماه على ملكها فلم تأذن والدة الملك بشرائه توجساً منه، ثم آل إلى الأمير علاء الدين أيدكين الصالحي البندقداري. وبعد ذلك بوقت قصير أصبح في صفوف مماليك الملك الصالح البحرية، وذلك في العام ٦٤٣ هـ/ ١٢٤٥م على وجه التقريب.

ومن الواضح أن المملوك بيبرس بما كانَ يتميز به من كفاءة لفت منذ البداية انتباه سيده الجديد. فضَمَّهُ إلى خواصِّهِ برتبة جمدار (أي مسؤول عن لباس السلطان) وغدا من المقربين إلى الملك الصالح المعتمَدين لديه، فأعتقه من الرق. وسرعان ما ترقى إلى رتبة أمير.

وشاءت الأقدار أن يقع الملك الصالح أيوب في الأسر في الكرك إثر صراع على السلطة بين الأيوبيين. وعندما شعرت قواته أن الأمور تميل لغير صالحه انفضت من حوله، ولم يَبقَ معه سوى قلة كان منهم محظيتُهُ الشهيرة شجرة الدر، ومملوكه ركن الدين بيبرس.

وما إن خرج الملك الصالح أيوب من معتقله في الكرك، وتولى حكم مصر حتى قرر أن يجعل من المماليك الركيزة

الأساسية لحكمه، فاشترى عدداً كبيراً منهم. وشيَّدَ لهذا الغرض قلعة الروضة ، وهي جزيرة في النيل مقابل الفسطاط، ولم تكن هذه القلعة الجديدة مقراً للمماليك فحسب، بل انتقل إليها الملك نفسه مع بلاطه وأسرته ليكون محاطاً بحرسه من المماليك الذين كان عددهم يتراوح بين ٨٠٠ و ١٠٠٠ مملوك. وأُطلِقَ عليهم اسم المماليك البحرية، نظراً لأنهم يعيشون في جزيرة الروضة في بحر النيل.

وتجدر الإشارة إلى حقيقة هامة، وهي أن هؤلاء المماليك كانوا غرباء عن المنطقة، وهم في غالبيتهم من أصل تركي جلبهم الأيوبيون إلى الشام ومصر أطفالاً صغاراً، ونشؤوا وسط بيئة عربية، وتعلموا اللغة العربية وهم صغار، وتلقوا أصول الدين الإسلامي، وبذلك شبوا وهم لا يعرفون وطناً غير الوطن العربي. وتشربوا العروبة والإسلام منذ حداثتهم، فصاروا جزءاً من البيئة العربية، وأخذوا يحسون بالأحاسيس التي كان يحس بها معاصروهم العرب تجاه الأخطار الخارجية الكبرى التي هددت الوطن العربي ،ولذلك كان دورهم بارزاً في المعارك التي كُسِرَتْ فيها شوكة المغول، وفي تصفية الكيانات الصليبية وتحرير الأرض.

معركة المنصورة وتألق بيبرس عسكرياً

ظل الاستيلاء على مصر يمثل هاجساً لدى الدويلات الصليبية والقوى الأوربية الداعمة لها. وشكل تحرير القدس للمرة الثانية في عام ٦٤١ هـ/ ١٢٤٤م سبباً مباشراً للدعوة إلى القيام بحملة صليبية جديدة. وقد تبنى هذا المشروع ملك فرنسا لويس التاسع الذي عُرِفَ بالقديس لويس. وانطلق من فرنسا على رأس أسطول حربيّ نزل في قبرص، ثم مكث فترة فيها لترتيب الهجوم على دمياط التي لم تلبث أن استسلمت للصليبيين، الأمر الذي شجَّعَهم على متابعة هجومهم باتجاه القاهرة في ٢٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٢٤٩م.

وفي ذلك اليوم تُوُفِيَ الملك الصالح نجم الدين أيوب، ووقعت الدولة الأيوبية في أزمة سياسية وعسكرية خطيرة. ولولا حكمةُ شجرة الدر، أرملةِ السلطان، وتفاهمُها مع قادة الجيش والمماليك البحرية على كتمان خبر الوفاة تجنباً

لوقوع اضطراب في صفوف الجند لأخذت الأحداث مساراً مغايراً. فاستمرت شجرة الدر في وضع الخطة الحربية، والإشراف على تنفيذها ، ومراقبة سير المعركة. وقد تحمس المماليك البحرية في القتال وتضافر معهم الأهالي.

وكانت شجرة الدر تقول للأمراء إن السلطان مريض لا يصل إليه أحد، وتحرص على أن يُمَدَّ السماط السلطانيّ (أي سفرة الطعام) في مواعيده، وأن تخرج الأوامر كل يوم ممهورة بالعلامة السلطانية التي كانت تقلدها أو يقوم بذلك أحد المقرَّبين إليها.

وفي الوقت ذاته أرسلت إلى ابن زوجها تورانشاه فاستدعته من إمارته في حصن كيفا الواقع على نهر دجلة إلى الشرق من ديار بكر (في شرق تركيا حالياً) ، وأصدرت الأوامر إلى أكابر الدولة كي يبايعوه ويحلفوا له بالسلطنة. واستمر القتال، وقُدِّرَ للجيش الفرنسي أن يحقق تقدماً كبيراً قُتِلَ في أثنائه ،فخر الدين قائد الجيش الأيوبي.

إلا أن الجيش الصليبي اصطدم في النقطة الحاسمة بمماليك السلطان الملك الصالح أيوب بقيادة بيبرس الذي حمل معهم على الفرنج حملة زعزعت أركانهم وكسرتْهم، ووثب بيبرس على الأمير أرتوا، شقيق الملك، فصرعه

بضربة سيف، ثم لاحق فرسان الصليبيين اللائذين بالفرار يقتل كل من يظفرُ به منهم. وفي إثر هذه الهزيمة أُسِرَ الملك الفرنسي لويس التاسع ذاته، واعتقل في دار ابن لقمان في مدينة المنصورة.

إن دور المماليك في هزيمة الحملة الصليبية التي قادها الملك لويس التاسع، ووقوعه مع جيشه في الأسر، أبرز قوة فرسان المماليك، وأنقذ الدولة من الزوال، وسوَّغ للمماليك لاحقاً حكم مصر، وتألق نجم الأمير ركن الدين بيبرس، وهو شاب لا يزيد عمره وقتئذ عن خمسة وعشرين عاماً، قائداً حاسماً أنقذ الموقف. كما برز دور السلطان الشاب الملك المعظم تورانشاه. إلا أن هذيْنِ القائديْنِ الشابيْنِ لم يتفاهما، ولم يَمضِ وقتٌ طويلٌ على انتهاء المعركة حتى احتدم الصراع بين الملك المعظم تورانشاه ومماليك أبيه، ومرة ثانية برز ركن الدين بيبرس شخصيةً رئيسيةً في هذا الصراع، وهـو ما يتوضح من تتبعنا مجريات الأحداث بعد حسم معركة المنصورة المجيدة.

بيبرس ومقتل الملك المعظم تورانشاه

عندما وصل تورانشاه إلى المنصورة قادماً من إمارته على نهر دجلة، ووجد المعركة في ذروتها بادر إلى تسلم الحكم حالا، وسُمِّيَ بالملك المعظم تورانشاه، وأُعلن رسمياً عن وفاة الملك الصالح. واستطاع الملك الشابُّ أن يتابع قيادة المعركة ضد قوات الملك الفرنسي دون إضاعة وقت، فتحقق له النصر بحماسه وقوة مماليك أبيه. والغريب في الأمر أنه ما إن شعر الملِكَ المعظم تورانشاه بأن خطر الحملة الصليبية قد زال حتى دَبَّ الخلاف بينه وبين المماليك، أركانِ دولة أبيه المزهوِّين بالنصر المؤزر، الأمر الذي أدى إلى صراع داخلي لا يمكن وضع حد له. وسرعان ما تطور الوضع إلى نقطة لا عودة منها، فكان لا بد من القضاء على أحد طرفي الصراع.

ويبدو أن تورانشاه كان ينظر في تلك اللحظة إلى المماليك البحرية نظرة توجس وخوف، فسعى إلى إبعادهم

عن المراكز المهمّةِ ليسلِّمها إلى مماليكه وأتباعه الذين جاؤوا معه من الشرق. وفي أثناء ذلك تعرض بعض المماليك البحرية إلى الاضطهاد والتهديد. ويُروَى أن الملك المعظم تورانشاه كان إذا سكر ليلاً جمع الشموع أمامه وضرب رؤوسها بالسيف حتى تنقطع وقال : «هكذا أفعل بالبحرية»، ويسمي كل واحد منهم باسمه. وهذا ما جعلهم ينقمون عليه ويعملون على التخلص منه.

ولم يقتصر الملك المعظم تورانشاه في سلوكه الاستفزازي على مماليك أبيه، بل تعدَّى ذلك ليشمل بتصرفاته الفظة أرملة والده شجرة الدر التي رعت حقوقه في وراثة الحكم وأمَّنت له تولِّيَ السلطة دون أية عراقيل. فقد هددها وطالبها بأموال أبيه، فأبلغته أن الأموال أنفقت على الحرب وترتيب أمور البلاد. غير أن وقع التهديدات كان شديداً على شجرة الدر، وأرغمها على الرحيل الى القدس خوفاً من أن يغدر بها. وشكت أمرها إلى قادة المماليك البحرية الذين كانوا يُكِنُّونَ لها احتراماً بصفتها زوجة سيدهم الذي اشتراهم، وأفسح لهم المجال للارتقاء إلى قمة الهرم السياسي والعسكري.

يا له من جو مأزوم ازداد حدة في ظل غياب شخصية مرموقة ذات تأثير على الجانبين، تعمل على حل الأزمة

وتوحيد الصف، وتجنيب البلاد مأزقاً خطيراً، وخاصة أن الملك الفرنسي الأسير وجيشه كانوا ما يزالونَ معتقلين في المنصورة. ولم يبق سوى الصدام بين مركزي القوة. إذ رأى المماليك أنه لا حل إلا بالتخلص من الملك، فحيكت المؤامرة لاغتياله، وقام بتنفيذها أربعة من أمراء المماليك، في مقدمتهم فارس الدين أقطاي وبيبرس البندقداري.

وفي صباح يوم الاثنين ٢٨ محرم ٦٤٨هـ/٢ أيار (مايو) ١٢٥٠، وبعد أن تناول الملك طعامه، دخل بيبرس إلى خيمته وضربه بسيفه، فرد الضربة بيده، وقطع بعض أصابعه. وبينما كان يصرخ طالباً النجدة رمى بيبرس سيفه من يده وانصرف. وحاول أتباعه أن يقنعوا الملك بأن المهاجم من الحشاشين، إلا أنه لم يصدق أقوالهم وقال: (ما فعل بي هذا إلا البحرية، قسما بالله لأُفْنِيَنَّهُمْ عن بكرة أبيهم)! ثم صعد إلى البرج الخشبي الذي أنشأه على النيل، واحتمى في أعلاه، ولكن سرعان ما اجتمع المماليك قائلين: (بعد جرح الأفعى لا ينبغي إلا قتلها) فحاصروا البرج، وأضرموا فيه النار. فنزل الملك منه، وهو يصيح طالباً النجدة : (خذوا ملككم ودعوني أعود إلى حصن حيفا). وألقى نفسه في النيل، آملاً أن يحتمي بإحدى السفن الراسية،

إلا أن أقطاي لحق به وقتله. وهكذا مات تورانشاه جريحاً غريقاً حريقاً، ولم يكن قد تجاوز عمره ثلاثين عاماً، ولم يستمر في الحكم أكثر من شهرين .

وبمقتل الملك المعظم تورانشاه انتهى حكم الدولة الأيوبية في مصر، واستمر الأيوبيون يحكمون عشر سنوات أخرى في بلاد الشام في وضع مضطرب ونزاع مع المماليك أصحاب السلطة في مصر. كانت تلك مرحلة جديدة مغايرة سببت إرباكاً كبيراً أول الأمر في وقت كانت فيه المنطقة تشهد أحداثا خطيرة. إذ إن الخطر المغولي ظهر للعيان، وأخذ يتقدم نحو المنطقة العربية التي لم تكن قد تخلصت بعدُ من الاحتلال الصليبي الجاثم على أراضيها منذ ما يزيد عن قرن ونصف في ذلك الحين .

بيبرس والانقلاب المملوكي

بعد إقدام المماليك على قتل الملك المعظم تورا نشاه، ابنِ أستاذهم وولي نعمتهم الملك الصالح أيوب، حدث فراغ في السلطة، لأن الملك المغدور لم يخلف وريثاً في مصر يمكن أن يؤول إليه الحكم، كما هي العادة في الحكم الملكي الوراثي السائد في الدولة الأيوبية. ولم يتفق المماليك فيما بينهم على تولي الحكم مباشرةً. والمشكلة التي جابهتهم هي أنهم أرقاء وهم مجموعات، وكلٌّ مجموعة منهم لها حساباتها. ولذلك كان الحل الأسهل أن يبايعوا مؤقتا شجرة الدر، أرملة الملك الصالح أيوب، ريثما يجدون حلاً يمكّنهُم من الصمود. واعتمدوا في ذلك على حقيقة كون شجرة الدر قد أنجبت من الملك الصالح أيوب ولداً اسمه خليل ولكنه توفي. كما أنها لم تكن بعيدة عن مؤامرة قتل الملك المعظّم تورانشاه.

ورغم معارضة بعض الأمراء النافذين، فقد تمت البيعة لشجرة الدر سلطانة على الدولة المملوكية الفتية، وتولت

زمام السلطنة حوالي ثلاثة أشهر. وعُيِّنَ الأمير عز الدين أيبك أتابكاً (قائداً للجيش)، وكان يُدعى لها على المنابر: (اللهم وأَدِمِ السِترَ الرفيعَ، والحجابَ المنيعَ، ملكةَ المسلمين، عصمةَ الدنيا والدين، أم خليل المستعصمية صاحبة الملك الصالح). وضُرِبَت النقود باسم أم الخليل، وكذلك كان توقيعها.

غير أن الخليفة العباسي كان في مقدمة المعترضين على هذا الاختيار، إذ جاء في كتابه الذي وجهه الى القاهرة قوله: (إن كانت الرجال قد عدمت عندكم، فأعلمونا حتى نُسَيِّر َإليكم رجلاً). ونتيجةً للضغوط التي وردت من الشام، حيث نودي بالناصر يوسف ملك حلب قائداً للأيوبيين وزعيما للحركة المناوئة للمماليك والساعية لإعادة مصر للأيوبيين تنازلت شجرة الدر لعز الدين أيبك، واقترنت به، وأدى له الأمراء يمين البيعة، وغدا سلطاناً، وعرف باسم الملك المعز أيبك. والواضح أن هذا التنازل لم يكن يعني أن شجرة الدر قد عزلت نفسها كلياً، بل كانت ترى نفسها قسيمته في الحكم.

رُغم تنحي شجرة الدر شكلياً عن سدة الحكم، والقضاء بذلك على مسألة تربع امرأة على دست سلطنة دولة إسلامية، فإن الأمور لم تستتب ولم يرضخ الناس لتولي

المماليك الحكم بدلاً من سادتهم الأيوبيين، فنشأ تحالف أيوبي في الشام بقيادة ملك حلب الناصر يوسف الذي ضم إليه دمشق ومضى على رأس القوات الأيوبية حتى غزة. إلا أن اضطراباً وقع في صفوف قواته، ولم تصمد أمام الجيش المملوكي.

وقد أثار تولي الملك المعز أيبك السلطة انقساماً في صفوف المماليك ذاتهم، فاتفق بيبرس وفارس الدين أقطاي، قائد الممالك البحرية ومنافس الملك المعز أيبك الرئيسي في الصراع على الحكم، على عدم الاعتراف بسلطة أيبك. وطالبا باختيار الملك الأشرف موسى من الأسرة الأيوبية سلطاناً، وهو مازال قاصراً. وهذا ما لجأ إليه أيبك دون أن يغير من وضعه في السلطة. ولكي يفوِّت الملكُ المعز أيبك الفرصة على المطالبين بعودة مصر إلى الحكم الأيوبي أعلن أن مصر تعود إلى الخليفة العباسي المستعصم بالله، وأنه يحكم البلاد بصفته والياً عليها من جانب الخليفة.

إلا أن هذا لم يمنع من تكرار الحملات الأيوبية على مصر، وكان أضخمها الحملة التي قادها الملك الناصر يوسف في أواخر عام ٦٤٨هـ/ شباط (فبراير) ١٢٥١م. غير أن مماليكه انقلبوا عليه، وهم من الأتراك، وأيَّدوا أبناء

جنسهم، الأمر الذي أدى إلى تقهقر الملك الناصر يوسف، وظهور مواقف جديدة برز فيها بيبرس وأقطاي منافسيْنِ وخصميْنِ رئيسيينِ للملك المعز أيبك. وقد أثبتا قوتهما خلال الأحداث.

وتزايد الخلاف خاصةً بين أيبك وأقطاي الذي كان يستهين في كل مناسبة بقوة أيبك ويتحداها. ولذلك أقدم الأخير على الغدر به، عندما استدعاه إلى حضور اجتماع في القلعة يوم ١٠ ذي القعدة ٦٥١ هـ/كانون الثاني (يناير) ١٢٥٤ م. وما إن دخلها حتى غدر به رجال أيبك، وقتلوه وقطعوا رأسه، وألقوا به إلى أتباعه الذين كانوا ينتظرونه أمام القلعة. وبذلك تفرقت صفوف مماليك البحرية، وفروا إلى الشام وبلاد الروم.

بيبرس لاجئاً في الشام

مرة أخرى كان بيبرس نفسه وسط أحداث بالغة الخطر وموقف لا يسمح بأي تأخير في اتخاذ القرار. ولما كان المكوث في مصر غير مأمون العواقب له ولجماعته؛ تراءت له الشام ملاذاً آمناً وموضعاً للانطلاق منه إلى مصر، إذ إن الشام ومصر صنوان. فيمَّمَ وجهه وجماعته شطر الشام في عام ٦٥١هـ / ١٢٥٣م، ومكث فيها ما يزيد عن أربع سنوات، قضى معظمها لدى الملك الناصر يوسف، أقوى الملوك الأيوبيين وقتئذ. وقد رحّب به وبجماعته، ومنحه نابلس ومناطق أخرى إقطاعاً له. وكان همّ بيبرس أن يقوم الملك الناصر يوسف باستعادة مصر إلى الحكم الأيوبي، خاصة وأن قلاقل قد وقعت في مصر بعد مقتل الملك المعز أيبك في عام ٦٥٥هـ/١٢٥٧م بتدبير من زوجته شجرة الدر التي جعلت خواصَّها يقتلونه ، وهو في الحمَّام بضربهِ بالقباقيب، وذلك لأنه خطب بنت أمير الموصل. وسعت أن تسيطر على الوضع

بعرض تولي الحكم على عدد من الأمراء الموثوقين لديها، إلا أن التطورات أخذت منحى خطيراً. وكانت الدعوة للانتقام منها في مقدمة مطالب مؤيدي الملك المغدور.

لقد أدركت شجرة الدر أن الأمور في غير صالحها، ولن تجد من يدعمها في تثبيت أقدامها، لا بل تُركَت وحدها لتواجه مصيرها. ولما تأكدت أن الانتقام منها واقعٌ لا محالة، أقدمت على إتلاف شيء من الجواهر النفيسة واللآلئ الثمينة التي كانت في حوزتها بتكسيرها في الهاون، لا لها ولا لغيرها، ثم آلت الأمور إلى قتلها بطريقة شنيعة.

ولم يُكتَب لمحاولات بيبرس المتكررة القيام بحملة ناجحة تقضي على الحكم في مصر أن ينجحَ أيٌّ منها. ووجد أن الخطر المغولي آخذ بالزحف يوماً بعد يوم ، واجتاح هولاكو في صفر ٦٥٦ هـ / شباط (فبراير) ١٢٥٨م بغداد عاصمة الخلافة العباسية، وقتل المغول الخليفة العباسي المستعصم بالله وأسرته وكبار رجال دولته، واستباحوا بغداد وكنوزها ومكتباتها ومدارسها، وهجرها العلماء والأطباء والأدباء، من اللذين ظلوا على قيد الحياة. ولم يكتفِ هولاكو بما أوقعه من دمار وترويع في العراق، بل توجه على رأس قواته لاجتياح الشام.

عندها طلب بيبرس من الملك الناصر يوسف أن يقدمه على ٤٠٠٠ فارس أو يقدم غيره، ويتوجه بهذه القوات إلى شط الفرات، ليمنع المغول من عبور النهر، فلم يستجب الملك لطلبه، وذلك بناءً على نصيحة وزيره زين الدين الحافظي، المرتبط سراً بالمغول، بعدم مقاتلتهم. عندها صاح بيبرس بالوزير قائلاً «أنتم سبب هلاك المسلمين».

فماذا فعل بيبرس، يا تُرى، أمام غزو مغولي لا يبقي ولا يذر، وحكام مترددين ليس لهم قرار حاسم، وفرار المواطنين في كل اتجاه أمام الخطر المغولي الداهم الذي سبق أن عانى منه بيبرس وهو طفل في بلاد القفجاق؟

في ظل هذا الوقت العصيب والوضع المتفاقم لم يفكر بيبرس إلا بالمقاومة وبتوحيد الصفوف، متناسياً جميع الخلافات. فعرض على الملك المظفر سيف الدين قطز، الذي تولى الأمر في مصر بعد فترة من الاضطرابات تلت قتل أيبك وشجرة الدر، **أن** يعود وينضم إليه في مجابهة المغول. فرحب الملك المظفر قطز بذلك وخَصَّهُ باستقبال رفيع في ٢٢ ربيع الأول ٦٥٨هــ/١٢٦٠م، وأنزله في دار الوزارة، وهي التي كان ينزلها صلاح الدين الأيوبي، والعديد من الملوك الأيوبيين، ومنحه إقطاع قليوب وأعمالها. واستعان

ببيرس في الاستعدادات لحرب المغول، الذين وصلوا دمشق بعد اجتياحهم حلب وتدميرها، وارتكاب أشنع المجازر فيها ،وتقدموا جنوباً حتى وصلت طلائعهم غزة، أي إن المغول أصبحوا أمام أبواب مصر.

لم يمكث بيبرس طويلاً في القاهرة، إذ إن رُسُلَ هولاكو وصلوا إلى السلطان المملوكي الملك المظفر قطز حاملين منه رسالة تهديد ووعيد يدعوه فيها إلى الاستسلام، لأن المغول مصممون على غزو مصر وما بعد مصر.

وجاء في مطلع الرسالة : «من ملك الملوك شرقاً وغرباً، الخان الأعظم، باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السما، يعلم الملك المظفر قطز، الذي هو من جنس المماليك، الذين هربوا من سيوفنا إلى هذا الإقليم، أَنَّا نحن جند الله في أرضه، خلقنا من سخطه، وسلّطنا على من حل به غضبه. فاتَّعِظُوا بغيركم وأسلِمُوا إلينا أمركم. فنحن ما نرحم من بكى، ولا نرق لمن شكا. وقد سمعتم أننا فتحنا البلاد، وطهرنا الأرض من الفساد، وقتلنا معظم العباد، فعليكم بالهرب، وعلينا بالطلب، فأي أرض تأويكم ؟».

بيبرس في معركة عين جالوت

ما إن تُلِيَت رسالة هولاكو حتى استدعى الملك المظفر قطز الأمراء للتشاور. وبرز رأيان، أولهما: لا مصلحة في مصالحة التتار، إذ لا عهد لهم. وأما الغالبية فقد رأوا أنه لا تتوفر المقدرة على مقاومتهم، وتركوا الأمر لقطز؛ فقال : «إن الرأي عندي أن نتوجه جميعاً إلى القتال، فإذا ظفرنا فهو المراد، وإلا فلن نكون ملومين أمام الخلق». ثم اختلى مع بيبرس البندقداري، وكان بمرتبة أمير الأمراء، واستشاره في الأمر فقال بيبرس: «إني أرى أن نقتل الرسل، ونقصد كيتبغا (نائب هولاكو) متضامنين، فإن انتصرنا أو هزمنا فسوف نكون في كلتا الحالتين معذورين».

جاء رأي بيبرس معبراً تماماً عن موقف الملك المظفر قطز الرافض الإذعان للتحدي المغولي المرعب حقاً. فقَرَّرَ التصدي للمعتدين وتحديهم ومقاومتهم على الفور ملبياً نداء الوطن والأمة بالذود عن حياضه وبذل التضحيات في سبيل إنقاذ أرض الحضارات والرسالات من دنس الغزاة وويلاتهم، فالوطن يستحق

أن يفتدى بكل غال ورخيص. لم يكن الموقف يحتمل التأخير باتخاذ القرار. وفي ظل تطابق رأيه وبيبرس لم يتردد الملك المظفَّر قطز في إصدار أمره بقتل رسل هولاكو دون تأخير. فَقُتِلُوا وعُلِقَت رؤوسهم على باب زويلة بالقاهرة، ونودي بالخروج إلى الجهاد، وجمع الأموال اللازمة بفرض ضرائب جديدة.

ولما كانت الضريبة باهظة اعترض عليها العلماء، واشترط الشيخ عز الدين بن عبد السلام، أن يُحضِرَ قطز والأمراء أولاً ما عندهم من حليّ، ثم يفرض الضرائب على الرعية. وعندما أظهر بعض الأمراء اعتراضهم على مقاتلة المغول قال قطز: «يا أمراء المسلمين، لكم زمان تأكلون أموال بيت المال، وأنتم للغزاة كارهون، وأنا متوجه. فمن اختار الجهاد يصحبني، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته، فإن الله مطلع عليه، وخطيئة المسلمين في رقاب المتأخرين».

عندها أصبح الأمر محسوماً، واقتضت الخطة الحربية، أن يُكَلَّفَ بيبرس بقيادة قوة تكون في الطليعة، حُدِّدَت مهمتها في استطلاع أخبار التتار (المغول) وخططهم، والاشتباك معهم. فتقدم بيبرس بجيشه نحو فلسطين، الأرضِ التي قُدِّرَ لها أن تكون مسرحاً لأضخم المعارك في كفاح الأمة العربية ضد الغزو الخارجي، فمعركة حطين وعين جالوت وغيرهما

من المعارك الحاسمة في دفاع الأمة عن ترابها دارت على أرضها، والصورة تتكرر حالياً في كفاح الأمة ضد الغزو الصهيوني والاستعمار الاستيطاني. لقد خاض بيبرس أول صدام له مع قوة مغولية كانت تحتل غزة، فسحق طليعة الجيش المغولي، وطارد فلولهم حتى نهر العاصي. وهذه البداية الموفقة رفعت المعنويات، ومهدت لدخول المعركة الحاسمة بنوع من التفاؤل.

ثم أتى الجيش الرئيسي بقيادة قطز إلى غزة، ومنها توجه عن طريق الساحل إلى عكا، قاعدة الاحتلال الصليبي. وعرض الصليبيون على قطز معونتهم، إلا أنه شكرهم وخلع عليهم، واستحلفهم أن يكونوا لا له ولا عليه. وحَذَّرَ الصليبيين (الفرنجة) من أن أي محاولة من جانبهم ضد جيشه ستدفعه إلى الرجوع لقتالهم، قبل أن يلقى التتار (المغول). ووجه الفرنجة الدعوة لعدة أمراء لزيارة عكا ضيوفَ شرف، وكان منهم هؤلاء بيبرس الذي أبلغ قطز بأنه من اليسير الاستيلاء على عكا بغتةً. والواقع أن موقف الفرنجة الإيجابي سمح بالاستفادة من فرصة طيبة لتموين الجيش، ولاجتماع الفرق المشتركة من أبناء الشام ومصر في المعركة، ورسم خطة المعركة على عين المكان.

وتوجهت القوات المصرية والشامية نحو نهر الأردن، وتقدم بيبرس على رأس مقدمة الجيش إلى أن واجه طليعة التتار، وأرسل إلى قطز يخبره بذلك، وأخذ بمناوشتهم حتى وصول السلطان إلى عين جالوت في يوم ١٥ رمضان ٦٥٨ هـ/ ٣ أيلول (سبتمبر) ١٢٦٠ م .

وقد اشتهرت عين جالوت في التاريخ لأنها المكان الذي دارت فيه أحداث المعركة التي هُزِمَ فيها المغول لأول مرة، منذ خروجهم بقيادة جنكيزخان من بوادي وسط آسيا قبل حوالي أربعة عقود من وقوع المعركة، واستمروا يقضون على الدول والممالك والإمارات واحدة تلو أخرى، ويدمرون المدن ومراكز الحضارة، ويرتكبون المجازر، ويتطلعون إلى السيطرة على العالم ، ولا يعرفون حدوداً . وها هم الآن يصطدمون بإرادة الصمود والمقاومة بقيادة قائدين مقداميْنِ غيوريْنِ على حماية الأمة والوطن من كل عدو، هما: قطز وبيبرس.

لقد اقتضت الخطة أن يُخفي قطز جيشه المتفوق عددياً، ولم تظهر سوى الطليعة التي يقودها بيبرس. وهكذا وقع كيتبغا (أي أمير عشرة آلاف) قائد الجيش المغولي في الفخ، عندما حمل بكل رجاله على جماعة بيبرس الذين تقهقروا في

بداية المعركة حسب الخطة، وتبعهم المغول إلى الموضع الذي يرابط فيه قطز عند عين جالوت قرب نابلس بفلسطين، حيث تقوم تلال تغطيها الأحراج. فوقعوا في الكمين، إذ إن جيش قطز انشق إلى ثلاث جبهات وطوق كيتبغا وجيشه. ودارت معركة طاحنة استغرقت من الفجر حتى الظهيرة. ولأول مرة في تاريخهم يتعرض التتار (المغول) للهزيمة، وجرت مطاردة فلولهم حتى نهر الفرات.

وحسب رواية شاهد عيان: لم يسلم من المغول من يردُّ الخبر إلى هلاوون (هولاكو)، ولم يُبَلَّغْ عن الهزيمة الماحقة التي حلت بهم، الا من جانب المغول الذين فروا من دمشق وحلب. ويقال ان القائد المغولي نائب هولاكو كيتبغا قد سقط صريعا وأُسر ابنه، وتحطمت بذلك أُسطورة أن المغول قوم لا يُغلَبون. ومن زاعم يقول بأن كيتبغا قد أُسِرَ ثم قُتِل.

لقد فقد هيبته ومكره. وقد جاء في وصفه، أنه كان عظيماً في نظر المغول، يعتمدون على رأيه وشجاعته، كان كيتبغا محط اهتمام كبير من مؤلفي عصره، ويقفون أمام مكانته وتدبيره، وكان بطلاً شجاعاً مقداماً خبيراً بالحروب وافتتاح الحصون والاستيلاء على الممالك. وهو الذي احتل معظم بلاد العجم والعراق. وكان هولاكو يثق به، ولا يخالفه فيما

يشير إليه، ويتبرك برأيه، إذ كان كيتبغا يعتمد في حروبه أشياءْ لم يسبقه إليها أحد.

كان إذا احتل بلداً ساق المقاتلين في ذلك البلد إلى البلد الآخر الذي يليه، ويطلب من أهل البلد الجديد أن يؤووا هؤلاء إليهم. فإن فعلوا حصل مقصوده في تضييق الأطعمة والأشربة التي لا تعود تكفي الجميع، فتقصر مدة الحصار عليه، وإن امتنعوا من إيوائهم عندهم قاتلهم بأولئك المقاتلين، الذين هم من أهل البلد الذي احتله قبل ذلك. فإن تمَّ له الاحتلال، وإلا يكون قد أضعف أولئك بهؤلاء، حتى يفني أولئك المقاتلين، وإلا قاتلهم بجنده وأصحابه، مع راحة أصحابه، وتعب أهل البلاد وضعفهم، حتى يخضعهم سريعاً.

وكان يبعث إلى الحصن من يقول: «إن ماءكم قد قَلَّ، فنخشى أن نأخذكم عنوة، فنقتلكم عن آخركم، ونسبي نساءكم وأولادكم، فما بقاؤكم بعد ذهاب مائكم ؟ فافتحوا صلحاً، قبل أن نأخذكم قسراً. فيقولون له : إن الماء عندنا كثير فلا نحتاج إلى ماء. فيقول: لا أصدق، حتى أبعث من عندي من يشرف عليه، فإن كان كثيراً انصرفت عنكم. فيقولون : ابعث من يشرف عليه». فيرسل رجالاً من جيشه معهم رماح مجوفة محشوة سماً، فإذا دخلوا الحصن الذي قد أعياه،

أنزلوا رماحهم في ذلك الماء، على أنهم يفتشونه ويعرفون عمقه، فينفتح ذلك السم ويستقر في ذلك الماء فيكون سبب هلاكهم وهم لا يشعرون .

ويروي المؤرخون الذين ذكروا أن كيتبغا لم يسقط صريعاً في المعركة، بل أُسِرَ وأحضِر مكبلاً بالقيود إلى مجلس الملك المظفر سيف الدين قطز المنتصر، أنه رغم الوضع المذل الذي آلَ إليه كيتبغا، من قائد جيش لم يعرف الهزيمة قبل معركة عين جالوت، إلى أسير ذليل يقوده عساكر بالسلاسل لا يأبهون بمكانته ووجاهته وصيته، ويهزؤونَ بلقبه الأرفع أمير عشرة آلاف. إن كيتبغا لم يسكت أثناء وقوفه مكبلاً بالقيود أمام الملك المملوكي المزهوِّ بالنصر، بل أخذ يكيل السباب والشتائم للمماليك، ويهددهم بالانتقام من جانب سيده هولاكو.

ولكن الملك المظفر قطز المعروف بصرامته لم يتوانَ عن قتل كيتبغا في الحال، وأمر بأخذ رأسه ليطاف به في جميع المدن حتّى ترتفع معنويات الناس، ويعرفوا أن التتار قد هزموا، وأن الذين رَوّعوا المنطقة ودمّروها، قد كُسِرَت شوكتهم على يد قوات المماليك، وأن توغلهم في المشرق العربي قد توقف.

وفيما بعد، فِي عهد حكم بيبرس، شُيِّدَ نصب تذكاري في عين جالوت يذكر بهذا النصر التاريخي. وجلب هذا النصر تثبيت حكم المماليك، فلم يعد الناس ينظرون إليهم باعتبارهم غاصبين للسلطة من أسيادهم الأيوبيين، بل أصبحوا محط تقدير وإجلال. وهذا ما يعبر عنه المؤرخ أبو الفداء بقوله: «وتضاعف شكر المسلمين لله تعالى على هذا النصر العظيم. فان القلوب يئست من النصر على التتار لاستيلائهم على معظم بلاد الإسلام، ولأنهم ما قصدوا إقليماً إلا فتحوه، ولا عسكراً إلا هزموه». ووصل الاحترام والتقدير الذي خص به المماليك بعد النصر في عين جالوت درجة رفيعة نلمسها في موقف نور الدين سلطان اليمن أثناء أدائه فريضة الحج إلى بيت الله الحرام في السنة التالية لمعركة عين جالوت، إذ أبى أن تُقَدَّمَ أعلامه على الأعلام المملوكية بقوله: «أَتُراني أؤخر أعلام ملك كسر التتار» .

وفي هذه الأثناء مضى بيبرس يلاحق الفارِّين من الجيش المغولي حتّى وصل حمص، ثم عاد إلى الملك المظفر قطز الذي كان قد دخل دمشق باعتباره سيد الشام، وأعاد توحيدها مع مصر، وثبّت معظم حكام الشام من الأيوبيين، وعيّنَ على دمشق الأمير علم الدين سنجر، وعاد إلى القاهرة دون أن يزور بقية مدن الشام.

بيبرس واغتيال قطز

ما إن انحسر مؤقتاً الغزو المغولي الذي وَحَّدَ الصفوف وجعل بيبرس يعود من الشام، لينضم إلى الملك المظفر قطز، كي يسهم في خوض المعركة ضد المغول، حتى عادت التناقضات بين هاتين الشخصيتين القويتين والقائدين الفذين، الملك المظفر سيف الدين قطز والأمير ركن الدين بيبرس .

ويبدو أن السلطان قطز كان قد وعد بيبرس بأن يسند إليه ولاية حلب إذا ما تمَّ الانتصار على المغول، إلا أنه لم يفِ بوعده. وهذا ما جعل بيبرس يلجأ إلى التآمر ضده. وبالطبع لم يفكر المتآمرون بتنفيذ خطتهم وهو في وسط جيشه، بل لجؤوا إلى اقتناص فرصة يكون فيها قطز بعيداً عن الجيش. وقد جاءت اللحظة المناسبة عندما انعطف السلطان عن الطريق لصيد الأرانب ، وجرت عملية الاغتيال في تلك اللحظة.

فمن قائل إن المتآمرين استقطبوا حامل سيف السلطان إلى جانبهم، وهو الذي ضربه ثم أكمل بيبرس الاغتيال، إلى قائل آخر بأن بيبرس تَدَخَّلَ لدى السلطان بشفاعة لشخص فَلَبَّاها، وأخذ يده ليقبلها ،فاجتذبه نحوه وأهوى عليه حامل سيفه. وتتعدد الروايات والمؤامرة واحدة ،وقطبها الرئيسي تخطيطاً وتنفيذاً، هو بيبرس المتطلع إلى التربع على عرش السلطنة.

هكذا لم يكتب للسلطان الملك المظفر قطز أن يحتفل بانتصاره. فقد لقي حتفه قبل أن يمر شهران على هذا الانتصار المؤزر. وعاد الفراغ في رأس السلطة في الدولة المملوكية التي لم يمضِ على تأسيسها عقد من الزمن. وبطبيعة الحال لو كان للملك المظفر قطز وريث لكان حل محل والده، على الأقل مؤقتاً، ريثما تنتهي فترة احتدام الصراع على السلطة.

إلا أن عدم وجود وريث أدى إلى اتباع مبدأ سائد لدى الأتراك وهو أن من يقتل الحاكم يصبح هو نفسه حاكماً. ولذلك عندما وصل بيبرس مع الجماعة الذين قتلوا قطز إلى الدهليز السلطاني في الصالحية (مدينة بناها الصالح أيوب)، سألهم نائب السلطنة من قتله منكم؟ فقال له بيبرس : أنا. عندها قال له نائب السلطنة: يا خوند اجلس في مرتبة

السلطنة. فجلس، واستدعيت العساكر لأداء يمين الولاء، فحلفوا له في اليوم الذي قتل فيه قطز.

وبعد أن انتهت مراسم حلف اليمين كان الأهم هو التوجه على جناح السرعة إلى القاهرة، ودخول القلعة، وتسلم مقر السلطنة فيهـــا ، قبل أن ينتشر خبر الاغتيال . وبيبرس الشخصية الحاسمة، لم يتأخر بالتوجه في الليلة نفسها نحو القاهرة محفوفاً بمجموعة من الأمراء، فالتقى بنائب قطز على القاهرة، وهو يحث الخطى لاستقبال قطز وتهنئته بالنصر المؤزر. ولما أبلغ بالاغتيال بايع بيبرس وعاد في الحال إلى قلعة صلاح الدين لترتيب الوضع لدخول السلطان الجديد بيبرس إليها وتسلم مقر السلطنة، وهو ما وقع بيسر. وأضاف بيبرس لقباً جديداً إلى اسمه هو الملك القاهر، إلا أن اعتراضاً على هذا اللقب مبرراً بسوء طالع من تلقب به من الحكام السابقين أدى إلى تلقبه بالملك الظاهر.

بيبرس سلطاناً

في صباح اليوم التالي لاغتيال الملك المظفر قطز أُعلِنَ على أهالي القاهرة التي زُيِنَت احتفالاً بالانتصار أنه يجدر بهم الدعاء بالرحمة على الملك المظفر قطز، والدعاء للسلطان الجديد الملك الظاهر بيبرس.

وبعد حصوله على مبايعة أمراء الجيش الذين لم يحلفوا له في المعسكر، واستكمال المبايعة الرسمية جرى تنظيم موكب احتفالي طاف شوارع القاهرة، وشاهد عامّةُ الناس الأبهة التي خرج بها السلطان يوم ٢٣ تشرين الأول (أكتوبر) ١٢٦٠م. وأُرسِلَ المبعوثون إلى جميع الأنحاء للإبلاغ عن التغيير الذي حصل في سدة الحكم، للمطالبةِ بالمبايعة والخضوع. واستمر حكم الملك الظاهر بيبرس سبع عشرة سنة وشهرين وعشرة أيام، وهي مدة طويلة بالنسبة لسلاطين المماليك .

وخُصَّ الملك الظاهر بيبرس بعدد كبير من الألقاب مثل : «السلطان الملك الظاهر، السيد الأّجل الكبير، العالم العادل

المجاهد المرابط، المؤيد المظفر، ركن الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، سيد الملوك والسلاطين، قاتل الكفرة والمشركين، ناصر الحق مغيث الخلق، ملك البحرين، صاحب القِبلة خادم الحرمين الشريفين، محيي الخلافة المعظمة، ظلٌّ الله في الأرض، قسيم أمير المؤمنين، بيبرس ابن عبد الله الصالحي أعز الله سلطانه». ويضاف إلى ذلك تعداد البلدان التابعة لسلطانه، وفي مقدمتها الديار المصرية والممالك الشامية والديار الحجازية.

كان السلطان رئيسَ الدولة الأعلى. فهو زعيم أمراء المماليك، والمهيمن على شؤونهم العامة والخاصة، وصاحب الحق في تدرجهم في المناصب. وكان الأمراء يتدرجون من أمير خمسة إلى أمير عشرة إلى أمير أربعين إلى أمير مئين، ويختار الملك منهم قادة الجيش ومعظم موظفي الدولة. وكان من اختصاصاته توزيع الإقطاعات على الأمراء والأجناد وتحديد نصيب كل منهم، كما يتولى تعيين كبار رجال الدولة، مثل نائب السلطنة، وكاتب السر، والمحتسب، ونظار الدواوين، وله الحق في عزلهم وتأديبهم، وهو من يتولى النظر في المظالم.

وكان السلطان مطلق الحكم والتصرف. ولكنه إذا أراد البت بمشروع حيوي، أو إعلان حرب وإبرام صلح، عقد مجلس السلطنة لأخذ المشورة بحضور أتابك العساكر، والخليفة، والوزير، وقضاة المذاهب وأمراء المئين (كبار القادة ويتبعهم مائة مملوك وأكثر) ، ويجري اختيار كبار قادة الجيش وولاة الأقاليم من هؤلاء الأمراء. وتتمثل الوظائف الكبرى في نائب السلطنة والأتابك والوزير وولاية القاهرة وولاية الأقاليم.

كانت نيابة السلطنة وظيفة أيوبية أحياها بيبرس مع ما أحياه من الوظائف الأيوبية، ولقبُ نائب السلطنة سلطان مختصراً، بل السلطان الثاني، يشترك مع السلطان في تعيين الأمراء وتوزيع الإقطاع والموظفين، وكان ينوب عن السلطان في تصريف مهام الدولة، وهو من أمراء المئين وكان يلقب بكافل المملكة الشريفة الإسلامية.

أما نواب السلطنة في نيابات الشام فقد كان كل منهم ينوب عن السلطان ويمثله في حدود إقليمه. وكانت بلاد الشام أهم الولايات التابعة لمماليك البحرية، وهي تضم نيابات دمشق وحلب وطرابلس وحماه وصفد والكرك.

وكان نظام الحكم في كل هذه النيابات يماثل نظام الحكم في رئاسة الدولة. فكل نيابة مملكةٌ مستقلة لها دواوينها

وموظفوها، ولكنها أصغر من المركز. ويرأس كلاً منها نائب السلطنة، وله حاشية ومماليك. وكل نائب يمثل سلطاناً صغيراً في منطقة حكمه تابعاً للسلطان. وكان نائب دمشق أهم نواب الأقاليم وأعظمهم شأناً، حتى إن رتبته لم تكن تقل عن رتبة نائب السلطنة بالقاهرة، وهو أوسع نواب الأقاليم الشامية نفوذاً، ويطلق عليه لقب «النائب الكافل»، أو «كافل الممالك الشامية» ويقول عنه القلقشندي.. إنه قائم بدمشق مقام السلطان.

والأتابك هو القائد العام لجيوش الدولة. وأتابك لفظ تركي مركب من أطا، بمعنى أب وبك بمعنى السيد أو الأمير، أي السيد الأب، أب الأمراء. وكان يسمى أتابك العساكر، أي القائد العام.

والوزير يلي نائب السلطنة في المرتبة. وصاحب هذه المرتبة هو باب الملك المقصود، ولسانه الناطق، ويده الباسطة. واختار الملك الظاهر بيبرس وزراءه من أرباب الأقلام (الكتَّاب) والسيوف (أمراء الجيش)، فإذا كان من الكتاب أطلق عليه اسم الصاحب، الصاحب الوزير أو وزير الصحبة، وهو وزير متنقل يرافق السلطان في أسفاره وحروبه، وإذا كان من أرباب السيوف اكتُفِيَ بلقب وزير.

الملك الظاهر بيبرس في سياسته الداخلية

كان الاهتمام بأوضاع الداخل في مقدمة الجهود التي بذلها بيبرس. فوصوله إلى الحكم كان نتيجة لاغتياله السلطان السابق قطز الذي له أنصاره، وهناك أيضاً بعض بقايا البيت الأيوبي في الشام ومصر، وهؤلاء لهم تطلعات سياسية. ثم إن حالة الدمار والمجازر التي أوقعها المغول في العراق والشام؛ والحروبَ المستمرة منذ سنوات سببت هجرات من مناطق إلى أخرى، وارتفاعاً في الأسعار وقلة في الأقوات. وكل ذلك كان يتطلب معالجة سريعة وحاسمة، فكيف كان يتصرف الملك الظاهر؟

لقد وضع الملك الظاهر نصب عينيه تقوية الجبهة الداخلية، وتوحيد البلاد، وإعدادها لمجابهة الغزو المغولي المندفع إليها من الشرق، والغزو الصليبي المقيم على أرضها. وأول خطوة قام بها هي إلغاء الضرائب التي فرضت لتمويل الحرب، وهي خطوة جلبت له التأييد

الشعبي. ثم استمال عديداً من الأمراء بالأعطيات والوظائف. ولكن رغم ذلك ظل أمامه كثير من التحديات الخطيرة التي حلها بالحكمة أو الحيلة أو العنف.

فقد قام الأمير علم الدين سنجر والي دمشق بدعوة الناس لمبايعته سلطاناً، وخُطِبَ له على المنابر، وأخذ يتطلع لكسب تأييد حلب وحماة وسواها. فكان ذلك يعني انفصام وحدة مصر والشام التي استعيدت بعد معركة عين جالوت.غير أن السلطان لجأ إلى الحكمة في معالجة الموقف، فاستمال بعض رجال سنجر فنادَوْا ببيبرس سلطاناً. واضطر علم الين سنجر إلى الخروج إلى بعلبك حيث حوصر، وعُرِضَ عليه أن يتوجه إلى الملك الظاهر. فخرج من قلعة بعلبك ممتطياً جواده وهو بكامل عُدَّتِهِ.

وما إن ابتعد عن القلعة حتى قُدِّمَت له بغلة ركبها إلى دمشق، ومنها أُرسِلَ صُحْبَةَ عمال البريد إلى القاهرة. وعندما أُحضِرَ إلى الملك الظاهر قام إليه وعانقه وعاتبه عتاباً لطيفاً، ثم خلع عليه، وعينه بعدئذ والياً على حلب. وكان الملك الظاهر بيبرس قد عين أستاذه الأمير علاء الدين أيدكين البندقداري نائباً عنه في دمشق، وحافظ بذلك على وحدة مصر والشام.

لقد تعرض الملك الظاهر إلى مؤامرات استهدفت حياته من جانب بعض أمراء المماليك. إلا أنه عفا عن بعض المتآمرين، واعتقل من لمس الخطر من جانبهم. وعُرِفَ بالصرامة واليقظة ومراقبة معارضيه، لا بل والمخبرين لديه أيضاً. وقد تكون الأخطار المحدقة بالدولة المملوكية الناشئة هي سبب ملاحقة معارضيه بقسوة جعلتهم يخشون أن تكون للحيطان آذان فتبلغ السلطان ما يدور بين جدران البيت. وهذه الحيطة والقسوة ليستا طبيعةً جُبِلَ عليها الملك الظاهر، بل كانت وسيلة ردع للحفاظ على الدولة وعلى حكمه.

لقد كتب الطبيب الدمشقي الشهيرابن النفيس (توفي سنة ٦٨٧هـ / ١٢٨٨م)، الذي كان معاصراً للملك الظاهر وأحد أطبائه، عن الصفات التي تجدُرُ توفرها في السلطان. والأرجح أنه يقصد بذلك الملك الظاهر. ومن هذه الصفات أن يكون جريئاً قاسياً لا يرحم، ويجدر به أن يظل المرة بعد الأخرى يفرض عقوبات رادعة إذا ما أراد منع السرقة والجرائم الأخرى، حفاظاً على النظام في الحياة اليومية. ولذلك لا يمكن أن يكون السلطان من أبناء المدن، لأنهم لا يتسمون بالقسوة الضرورية. ولا بد أن تكون للسلطان عينان متقاربتان من بعضهما وصدر عريض، وجمجمة كبيرة،

ومنكبان عريضان، وساقان ضامرتان، وينبغي له ألا يكون مفرطاً في الطول ولا مفرطاً في القصر. ولابد له أن يجنح إلى الطبع الناري الذي يجعله يمتلك قدراً كافياً من الشجاعة. كما لابد أن يكره الراحة، وأن يحب الحركة، ويتحكم بشهيته عند الطعام.

بهذه الصرامة والمتابعة استطاع الملك الظاهر أن يقمع ثورة شعبية في القاهرة بعد قتل زعيمها الكوراني. ويبدو أنه كان شيعياً استطاع بزهده وورعه أن يستقطب جماعة كبيرة من المؤيدين خرجوا ليلاً يطوفون شوارع القاهرة، وفتحوا حوانيت صُنَّاع السيوف، وأخذوا منها السلاح، واقتحموا الإصطبلات، وأخذوا منها الخيول. ولم يتردد الملك الظاهر، فأرسل من الجند ما يكفي للقبض على زعماء الحركة. وما إن خمدت الحركة حتى أمر بصلب الكوراني مع عدد من رجاله على باب زويلة بالقاهرة.

كان الملك الظاهر يراقب بقايا الزعامات الأيوبية. وقد نُسِبَ إلى الملك المغيث عمر، صاحب الكرك، القيامُ باتصالات مع المغول، فاعتقله وعقد له مجلساً بحضور القضاة والأمراء. وأفتى الفقهاء بوجوب قتل المغيث، فأُرسِلَ إلى القاهرة مكبلاً حيث قُتِلَ.

وضغط على مجموعة القلاع الخاضعة لشيخ الجبل مثل مصياف، والخوابي، والكهف، والعليقة وسواها في الجبال الساحلية، واستفاد من إمكانات رجال شيخ الجبل الذين يُدْعَوْنَ الحشيشية في الكفاح ضد الغزاة. ونجد في سيرة الملك الظاهر تفاصيل واسعة عن علاقة بين بيبرس وبين الفداوية (الفدائيين) أو أبناء إسماعيل، حسبما تسميهم السيرة، وتُشير إلى استعانته بهم.

على أن أهم خطوة قام بها الملك الظاهر لدعم الوضع الداخلي وإضفاء الشرعية على حكم المماليك تمثلت في إحياء الخلافة العباسية ونقلها إلى القاهرة، الأمر الذي منحه فرصة لفرض سلطته على الديار المقدسة.

في العام ٦٥٩ هـ/١٢٦١م أبلغه نائبه على دمشق أن رجلاً وصل إليه يَدّعي أنه أحمد بن الخليفة الظاهر بن الناصر. فأمره الملك الظاهر بالاحتفاء به، وترتيب وصوله إلى القاهرة في غاية الراحة والتبجيل .

وعندما حل بالقاهرة خرج الملك الظاهر لاستقباله، ومعه الوزير، وقاضي القضاة، والشهود، والقراء، واليهود بالتوراة، والمسيحيون بالإنجيل، وشق موكبه القاهرة، وبادر الملك الظاهر إلى عقد مجلس له بقاعة الأعمدة بقلعة الجبل حضره قاضي القضاة وأعيان الحكم.

وأَقَرَّ قاضي القضاة أثناء المجلس بصحة نسب المحتفى به إلى البيت العباسيّ، وبايعه بالخلافة. وتبعه الملك الظاهر والقضاة، ولقب بالمستنصر بالله، وأُمر أن يُنقَشَ اسم الخليفة بجانب اسمه على النقود، وأن يدعى له قبل السلطان في خطبة الجمعة. وبالمقابل، قام الخليفة المستنصر بالله بعد أن بايعوه بمنح الملك الظاهر تقليداً بولاية مصر والشام والحجاز واليمن والعراق وما يتجدد من الفتوحات، كما أعطاه خلعة السلطنة.

وعند تقليده الحكم أوصى الخليفةُ الملكَ الظاهرَ بأن يُعِيدَ الخلافة إلى بغداد. ومما جاء في التقليد قوله: «وبك يرجى أن يرجع مقر الخلافة إلى ما كان عليه في الأيام الأول، فأيقظ لنصرة الإسلام جفناً كان غافياً، وكن في مجاهدة أعداء الله إماماً متبوعاً لا تابعاً، وأيد كلمة التوحيد، فما تجد في تأييدها إلا مطيعاً سامعاً».

ولما أطمأن الملك الظاهر إلى توطيد سلطته بالتقليد الذي منحه له الخليفة المستنصر بالله، شرع بترتيب متطلبات إعادته إلى مقر الخلافة ببغداد المحتلة. فكلف بعض الأمراء والعساكر بمرافقة الخليفة، وخرج بصحبته من القاهرة إلى دمشق.

ويبدو أن الملك الظاهر لم يستمر في الدعم، فتابع الخليفة سيره نحو بغداد مخترقاً بادية الشام. وفي بلدة عانة انضم إليه أحد الناجين العباسيين من الغزو المغولي، يدعى الأمير أبو العباس أحمد، وتوجه إلى بلدتي الحديثة وهيت، حيث اصطدم مع المغول في معركة قتل فيها الخليفة المستنصر بالله في العام ٦٦٠ هـ/١٢٦٢م، ولم يَنجُ من جيشه سوى بعض الأمراء، ومنهم الأمير أبو العباس أحمد. وهكذا شغر منصب الخلافة ثانية لمدة سنة.

وعندما وصل الأمير أبو العباس أحمد إلى القاهرة، بناءً على طلب الملك الظاهر، تمت مبايعته على أن تكون له الزعامة الدينية تحت سلطانه، واحتُفِلَ بمبايعته، ولُقِبَ بالحاكم بأمر الله. وبذلك غدت القاهرة مقر الخلافة العباسية، وأُفرِدَ للخليفة الجديد جناح بالقلعة. ولم يكن للخليفة العباسي إلا أن يُدعَى بأمير المؤمنين، وأن يُخطَبَ باسمه على المنابر، وأن يُقَلِد السلطة للسلطان المملوكي الجديد عند توليته الحكم.

واستمرت الخلافة العباسية في القاهرة حتى فرض الحكم العثماني في مصر ٩٢٣هـ / ١٥١٧م. فنقله السلطان سليم الأول في شخصه إلى إسطنبول ، وأصبح السلطان العثماني

خليفة المسلمين. واستمرتْ هذه الحال حتى ١٩٢٤، عندما ألغى مصطفى كمال أتاتورك الخلافة وأعلن علمانية الدولة، وانتهت هذه المؤسسة السياسية الأرفع في الدولة الإسلامية بعد أن عاشت الخلافة نيفاً وثلاثة عشر قرناً باعتبارها أرفع المؤسسات الإسلامية.

لقد أولى الملك الظاهر القضاء اهتماماً كبيراً، وعَيَّنَ قاضي قضاة لكل من المذاهب السنية الأربعة في سنة ٦٦٣ هـ/ ١٢٦٥م. ويبدو أن الشكاوى من سير الأمور في هذه المؤسسة هو الذي دفعه إلى تعيين أربعة أشخاص برتبة قاضي قضاة، ومنح كُلاًّ من هؤلاء حق تعيين نواب عنهم في سائر الأقاليم. وقد اتُّبِعَ هذا النظام في جميع ولايات الدولة المملوكية .

كان الملك الظاهر أوّلَ من تولّى النظر في المظالم بنفسِهِ من سلاطينِ المماليك. وهو الذي أقام لذلك في سنة ٦٦١هـ /١٢٦٣م دار العدل، وكان يجلس فيها للفصل في القضايا يوميِ الاثنين والخميس من كل أسبوع، يحيط به قضاة المذاهب الأربعة وكبار الموظفين الماليين والإداريين وكاتب السر. وكان الملك الظاهر لا يتخلف عن الجلوس في دار العدل إلا في شهر رمضان، ويوصف مجلسه بالهيبة والحسم.

وفي ٩ رجب ٦٦٢هـ/١٢٦٤م حضر السلطان الملك الظاهر إلى دار العدل في محاكمة بشأن بئر. وكان القاضي ابن بنت الأعز، فقام الناس احتراماً للسلطان إلا القاضي، فإنه أشار عليه أن لا يقوم. وتَبَيَّنَ من خلال المحاكمة أن الحق مع السلطان، وله بينة عادلة. فانتُزِعَت البئر من المدَّعي، وهو أحد الأمراء .

ولم يكن الملك الظاهر يَبُتُّ في مجلس المظالم بقضايا الأفراد وحدها، بل تعدى اختصاصها إلى الفصل في شكاوى الشعب عامة. فقد كان يحرص على ضمان الحقوق والنظام العام. وعندما ارتفعت في ٦٦٣هـ / ١٢٦٥م أثمان الغلال حتى بلغ ثمن إردب (مكيال ضخم للحبوب) القمح نحو مائة درهم، وندر وجود الخبز، ذهب السلطان إلى دار العدل، وأمر بتخفيض أسعار الغلال رحمة بالضعفاء والفقراء والمساكين وغيرهم من الناس. لا بل تولت الدولة أثناء الأزمات إعالة المحتاجين .

فلما وقع الغلاء في مصر في سنة ٦٦٢ هـ/ ١٢٦٤م فرق الملك الظاهر الفقراء على الأغنياء والأمراء، وألزمهم بإطعامهم، ثم فرَّق من مخازن الحبوب لديه القمح على

الأمكنة حيث كان ينزل الغرباء والصوفية. ورتَّب للفقراء كل يوم مائة إردب مخبوزة تفرق بجامع ابن طولون، ودام على ذلك إلى أن دخلت السنة الجديدة.

ومن الأمور التي تدخَّل فيها الملك الظاهر بيبرس في عام ٦٦٦هـ/١٢٦٨م درء عدوى الأوبئة. إذ أمر بجمع المرضى الذين لا يُرجى شفاؤهم، وإبعادهم عن سائر السكان. وأوعز بنقل المرضى والعجزة ذوي الأعضاء المثقبة والعظام المكشوفة، وربما كانوا مصابين بمرض الجذام، إلى واحة الفيوم وإمدادهم بالمؤن الضرورية لحياتهم.

وأولى الملك الظاهر الاقتصاد اهتماماً كبيراً. فقد حرص على إشاعة الأمن والأمان، واهتم بالطرق وحركتها، وبنى الجسور والمحطات والخانات. ولقيت الزراعة رعاية باعتبارها عماد الثروة وعنصر الأمان في الأزمات، وكثرت زراعة القمح، وعُرِفَ عنه اهتمامه بغرس البساتين وتوفير أرفع الأصناف.

وأقام في أطراف حيّ اللوق بالقاهرة بستاناً جلب إليه أصناف الشجر من دمشق، واستقدم مهرة الزُّرّْاعِ والمطعِّمين من الشام فغرسوها. وراحت تنتج من الفواكه ما يضاهي منتجات الشام.

أما البريد فقد شهد عناية خاصة في عهد الملك الظاهر الذي أخضع دولته الممتدة من الفرات إلى النيل لإدارة منظمة، وواجه التحديات الخارجية التي كانت تحيط بها، فأوجد مؤسسة تضمن ربط مختلف ولايات الدولة مع المركز ومع بعضها بعضاً، وتكفُلُ انتقالَ الأخبار حول تحرك الأعداء في أي جانب. وجعل تنظيم البريد على طول الطرق التي تخترق جميع أرجاء الدولة، فكانت المراسلات بين دمشق والقاهرة تستغرق ثلاثة أيام، ويعود الجواب في غضون ثلاثة أيام أيضاً.

وحين يأتي البريد إلى الملك الظاهر كان يتلى عليه شخصياً، فيصدر أوامره بشأنه. وهكذا كان السلطان قادراً بفضل حسن تنظيم البريد على ضبط الأمور في معظم أرجاء دولته، وكان يتفقد البريد مرّةً أو مرَّتيْنِ في الأسبوع.

وقد أنفق الملك الظاهر أموالاً كثيرة في سبيل الوصول إلى نظام بريد فعال . وأمر بأن تُقام على الطرق المخصصة لتسريع نقل البريد ووصول الأخبار محطاتٌ للخيل على مسافات نظامية كان سعاة البريد (البريدية) يبدلون فيها خيولهم المتعبة، ويمكن أن يُبدَّلوا هم ذاتهم بسعاة آخرين.

ولما كان البريد في أيام حكم بيبرس يخدم أغراضاً عسكرية قبل كل شيء، وكان مؤسسة حكومية موضوعة تحت تصرّف الحاكم على سبيل الحصر، فإن هذه الطرق لم تكن بالضرورة هي طرق التجارة وحركة المرور العامة. ومثال ذلك طرق البريد باتجاه الفرات أو المناطق المتاخمة للاحتلال المغولي.

ونظراً لأهمية البريد في نقل الأخبار، فقد كان سعاة البريد (البريدية) يختارون من محيط السلطان، وبالأحرى من خاصته ومحط ثقته، ولهم مكانة محترمة. كما كان يراعى في اختيار هؤلاء البريدية أن يكونوا من ذوي الكفايات والذكاء القادرين على تبليغ الرسائل الشفوية عند الاقتضاء.

ويتبين مدى الأهمية التي كان بيبرس يعوّلها على البريد، من أنه أمر بأن تُقرَأ كل الرسائل الواصلة بالبريد، بحضوره، وأن يؤتى بأوراق بيض يكتب عليها أجوبته. ويقول : «لو وصل ساع عند طلوع الشمس لخرج بجواب منذ الساعة الثالثة من النهار، ولو وصل في الساعة الثالثة من النهار لانطلق عند الظهر».

وحتى المراسمُ والتشريفات كانت من حيث الأهميةُ بعد الأخبار الواصلة. وذات مرة بينما كان الملك الظاهر يستحم في خيمته وصل البريد من دمشق، فأقبل الأمير على قراءة الكتاب من دون أن ينتظر لحظة. وحتى في أوقات التسلية لم يكن عمل الحكومة يقرٌّ له قرار، فقد كانت الأمور تعرض عليه وهو في الصيد بعيداً في البراري.

وعُرِفَ عن الملك الظاهر تشجيعه سعاة البريد (البريدية) عندما يسرعون في نقل الأخبار من مراكز الأقاليم إلى العاصمة أو إلى مكان وجوده. فقد كافأ أحد سعاة البريد القادمين من دمشق بـــ٣٠٠ درهم، وساعياً آخر من حلب بـــ٤٠٠ درهم.

ولم يقتصر اهتمام الملك الظاهر بتنظيم البريد على بريد الخيل، وعلى تحسين محطات البريد على الطرق الواصلة بين أرجاء الدولة، ووضع الخيول والإبل السريعة الجاهزة دوماً للانطلاق بعد أن تحصل على كفايتها من العلف والماء عند المحطات أو بالقرب منها، بل استخدم من أجل الرسائل السريعة على وجه الخصوص الحمام الزاجل ، وهو ما يمكن أن يطلق عليه البريد الجوي، والإشارات بالنار والدخان.

إن استخدام الحمام الزاجل أو الطيور الهوادي معروف منذ القدم، ولم يبتدعه بيبرس، غير أن استعماله أصبح في عهده أكثر فاعِليّةً من جراء التنظيم الأفضل. فقد كان للحمام الزاجل أبراج خاصة في مراكز معينة في سائر أنحاء الدولة. فإذا نزل الحمام في مركز منها، نقل مراقب البرج (البرّاج) الرسالة التي بجناح الحمامة إلى حمامة أخرى لتنقلها إلى البرج أو المركز التالي، وهكذا من برج إلى برج إلى أن يتم تسليم الرسالة.

وكان الإيجاز والتركيز من أهم مميزات الرسائل التي ينقلها الحمام الزاجل، إذ يُستغنى فيها عن البسملة والمقدمات والألقاب، ويُكتفى بذكر التاريخ والساعة والمطلوب بصيغة مختصرة. وكان الخط المستعمل في هذه الرسائل يعرف باسم الغبار لأنه دقيق صغير يشبه ذرات الغبار. وبهذا كان حجم الرسالة في بعض الأحيان لا يزيد عن طول سلامية الإصبع.

إن نقل الأخبار بالإشارات البصرية كان محط اهتمام بالغ من جانب الملك الظاهر، ولهذا الغرض اعتنى بتشييد المناور التي تطلق منها هذه الإشارات في مواضع مرتفعة، وعلى مسافات تسمح برؤية الإشارة والمبادرة بإيقاد النار في

ما يليها من مناور. وهكذا فإنها كانت تخدم أغراضاً عسكرية، ويُلجأ إليها في التحذير من غارات مغولية أو حملات صليبية ممكنة، وذلك عن طريق إيقاد النار ليلاً والدخان نهاراً. وبهذه الطريقة كان ينتقل الخبر عن حركة العدو في يوم واحد من الفرات حتى القاهرة.

وقد وصف ابن فضل الله العمري المناورَ بقوله : «وهذه المناور تارةً تكون على رؤوس الجبال، وتارةً تكون على أبنية عالية. ومواضعها معروفة من أقصى ثغور (حدود) الإسلام كالبيرة والرحبة (على نهر الفرات)، إلى حضرة السلطان بقلعة الجبل (القاهرة)، حتى إن المتجدد بالفرات إن كان بكرةً عُلِمَ به عشاءً، وإن كان عشاءً عُلِمَ به بكرةً.

ولِمَا يُرفَعُ من هذه النيران أو يُدَخَّنُ من هذا الدخان أدلة يعرف بها اختلاف حالات رؤية العدو والمُخبَرُ به باختلاف حالاتها، تارةً في العدد، وتارةً في غير ذلك». وقد عُيِّنَ في كل منور (مفرد مناور) أشخاص لرصد الإشارات النهارية والليلية وإعطائها من منورهم إلى المناور التالية. ويتقاضى هؤلاء الأشخاص رواتب مقررة لهم على ذلك.

وكان كل من النظامين (الحمام الزاجل والمناور) يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالبريد ومحطات خيلـــه التي كان يتم إيواء

الحمام على سطوحها أو أبراجها. أما الأخبار الواردة من المناطق الحدودية البيرة والرحبة المعرضة للخطر على الفرات فكان يتم نقلها بطريقة إلى دمشق، ومن هناك كانت تواصل طريقها إلى غزة ثم إلى القاهرة بواسطة الحمام الزاجل أو السعاة.

وكان شأنُ البريد والحمام الزاجل ونقل الأخبار بالإشارات بالدخان والنار في المناور تحت تصرف السلطان نفسه مباشرة. وبفضل تأسيس شبكة البريد ومحطات الحمام الزاجل والمناور باتت كل النقاط الحيوية في الدولة مرتبطة بالعاصمة على نحو منتظم وسريع .

الملك الظاهر بيبرس والمغول

تعرض بيبرس في صباه وكذلك أبناء شعبه القفجاق لمآسي الهجرة من ديارهم، الأمر الذي أدى إلى بيعه رقيقاً. بعد وصوله إلى مصر عبر حلب وحماه ودمشق، وإلحاقه بمماليك البحرية التابعة للملك الصالح أيوب، وارتقائه في المناصب العسكرية برز محارِباً وقائداً فذّاً في معركة المنصورة ١٢٥٠م، وفي عين جالوت ١٢٦٠م التي أوقفت الاجتياح المغولي.

غير أن المذابح التي ارتكبها التتار (المغول) في البلدان التي اجتاحوها، وإسقاط الخلافة العباسية، والذعر الذي بثوه في نفوس الناس نتيجة المجازر والويلات التي لحقت بكل شيء، قد جعل بلاد الشام، أي الإقليمَ الشماليَّ من الدولة المملوكية بين عدوَّيْنِ هما: التتار في الشرق على ضفاف نهر الفرات، والصليبيّونَ (الفرنجة) في الغرب على طول الساحل الشامي. وهذا ما دعا الملك الظاهر إلى أن يكون

حاسماً مع التتار (المغول) ومع من تحالف معهم أولاً، ثم مع الفرنجة ثانياً. وأن يكون قائداً لمسيرة التحرير من الغزاة بعد أن تَشَرَّبَ روح العروبة والحضارة العربية الإسلامية. فقد غدت الشام ومصر وطنه الذي عرف كيف يصونه ويذود عن حياضه.

وإذا كانت عين جالوت أول معركة يُهزم فيها المغول منذ اندفاعهم من وسْطِ آسيا، ويُضطرُّون في إثرها أن ينسحبوا إلى ما وراء ضفاف الفرات، فإن هذا لا يعني زوال خطرهم. لذلك وضع الملك الظاهر بيبرس في مقدمة أولوياته دفع الخطر المغولي المحدق ؛ خاصة وأن الفرنجة وقتئذ كانوا في حالة ضعف نتيجة الانقسامات والمنازعات التي كانت تمزق صفوفهم، ونتيجةَ الحرب الأهلية التي شملت بعض مناطقهم.

لقد سلك الملك الظاهر في مجابهة المغول أسلوبين، هما، أولاً: حشد الإمكانيات لإيقاف وإفشال أية محاولة للانتقام من هزيمتهم في معركة عين جالوت، وثانياً: انتهازُ التناقضات القائمة في صفوف المغول بين (بركة) خان القبيلة الذهبية الذي كان يحكم بلاد القفجاق موطن بيبرس الأصلي، وبين هولاكو، قائد مغول فارس الذي هاجم البلاد الإسلامية، وقتل

الخليفة العباسي، ودمر مراكز الحضارة في العراق والشام، مثل بغداد وحلب وسواهما.

كما استفاد من النزاعات بين (بركة) خان و(أبغا) بن هولاكو ووريثه في حكم مغول فارس. فتحالف الملك الظاهر مع بركة خان، وتزوَّجَ ابنته، واستفاد من الحروب التي وقعت بين الجانبين. وبذلك استطاع أن يضمن عدم تحالف كل المغول ضد الدولة المملوكية، وانشغال هولاكو وابنه بعدوٍّ من قومه. وهذه الحال جعلته في مواجهة مغول فارس دون بقية جموع المغول.

استغل مغول فارس محاولة علم الدين سنجر الانفصالية، وعادوا لمهاجمة الشام فاحتلوا حلب ثانية، وتوجهوا نحو دمشق. إلاّ أنهم جوبهوا بمقاومة من جانب قوات حماة وحمص في معركة حامية الوطيس قرب جامع خالد بن الوليد في محرم ٦٥٩هـ/كانون الأول (ديسمبر) ١٢٦٠م، فانسحبوا إلى حلب للتحصن فيها ومعاودة الهجوم .

في إثر ذلك أرسل الملك الظاهر الجيش بقيادة مجموعة من الأمراء، ولم يستطع المغول الصمود، فطُرِدوا من حلب في نيسان (أبريل) ١٢٦١م، واضطُرُّوا إلى عبور نهر الفرات الذي أصبح وقتاً طويلاً يمثل الحدود بين الشام

والمناطق الواقعة تحت احتلال مغول فارس في العراق. وعاود المغول الهجوم مرة أخرى في العام ٦٦٤هـ/ ١٢٦٦م إلاّ أنهم هُزِمُوا أيضاً، ويبدو أن الهزيمة القاصمة التي لحقت بهم في عين جالوت قد غلبتْ على مصير المعارك التي خاضوها ضد الجيش المملوكي على مدى عقود.

قام الملك الظاهر بتحصين قلاع ومواقع عديدة على شط نهر الفرات، ولا سيما قلعة البيرة التي أرسل إليها الأسلحة وآلات القتال، وحشد فيها كل ما يحتاج إليه أهلها أثناء الحصار الطويل. فأراد أن تظل البيرة الحصينة المعززة بالإمدادات شوكة في جنب المغول.وأقام المناور فوق التلال لنقل أخبار تحركات العدو. كما استعان بالقبائل العربية إلى جانب الجيش ودَمَجَها في النظام الدفاعي. فجند عرب خفاجة لقتال قوات هولاكو وابنه أبغا على حدود الفرات، وغمرهم بالخلع والهدايا والأموال، ووصلت غاراتهم حتى بغداد.

وبالإضافة إلى ذلك اتَّبَعَ الملك الظاهر سياسة الأرض المحروقة تجاه المغول. فأمر نوابه في حلب في ٦٦٠ هـ/ ١٢٦٢ م بإحراق المروج والأعشاب التي اعتاد المغول أن يعسكروا فيها، أو على مقربة منها أثناء هجومهم على الشام.

وكانت طريقتهم في إحراقها أن يجهزوا الرجال، ومعهم الثعالب الوحشية وكلاب الصيد. فيكمنون في كهوف الجبال وبطون الأودية، ويرتقبون يوماً ريحه عاصفة، وهواؤه زعزع، وعندها يعلقون النار بأذناب تلك الثعالب والكلاب، ثم تُطلَقُ الثعالب، والكلاب في إثرها وقد جُوِّعَت. فتندلع الحرائق ولا تبقى مروج في طريق المغول لرعي خيولهم.

شعر الملك الظاهر في السنوات الأخيرة من حكمه، أنه حان الوقت للإيقاع بالمغول، وإلى الانتقال في سِجَالِهِ معهم من الدفاع إلى الهجوم.

في العام ٦٧٠ هـ/ ١٢٧٢م وصل الملك الظاهر بعسكره إلى الفرات، إذ بلغه أن طائفة من التتار (المغول) ترسُمُ هناك لمنازلةٍ كبيرةٍ. فخاض إليهم الفرات بنفسه وجنده، واستعمل لهذا الغرض عدة مراكب جرى فصلها أجزاء وحملها على ظهور الجمال. بعد وصولها إلى المكان المحدد جمعت الأجزاء، وأنزلها في نهر الفرات لعبور جيشه. وانتصر على المغول في الأراضي العراقية، وطارد فلولهم.

ثم سار إلى ناحية البيرة المحاصرة فهرب المغول، وتركوا خلفهم أموالهم وأثقالهم. ودخل الملك الظاهر البيرة بأبهة عظيمة، وفرَّق في أهلها أموالاً كثيرة، ثم عاد إلى

دمشق ومعه الأسرى المغول، ثم عادَ إلى مصر، واستقبِلَ استقبالاً حافلاً. ومما قال أحد الشعراء ممن شاهدوا خوض الفرات:

حَمَلَتْكَ أمواجُ الفراتِ، ومَن رأى
بحراً ســواكَ تُقِلُّــهُ الأنـهــارُ
وتقطَّعَتْ فرقاً ولم يكُ طودُهــا
إذ ذاكَ إلا جيشـُـك الجـــــرّارُ

هذه الحالُ دفعتِ الجوينيين الذين عينهم المغول لحكم العراق، إلى التعاون مع الملك الظاهر، ليسود الهدوء بما يكفل إعادة إعمار العراق. إلاّ أن المغول لم يلبثوا أن هاجموا الجوينيين وشرَّدوهم، ولم يسمحوا بأية خطوة لا تحقق مصالح الاحتلال المغولي.

في العام التالي ٦٧١هــ/١٢٧٣م بلغ الملكَ الظاهرَ، وهو في طريقه إلى دمشق، أن أبغا بن هولاكو خان مغول فارس، قصد بغداد، وخرج إلى الزاب متصيداً، فكتبَ إلى القاهرة بخروج العساكر جميعها والعربان من الديار المصرية. وأمر بأن جميع من في مملكته ممن له فرس أن يركب للغزاة، وأن تُرسِلَ كل قرية بالشام رجالاً من أبنائها

إلى أرض المعركة، وأن يتحمَّلوا المصاريف الناجمة عن ذلك. فالمعركة في نظره معركة جميع أبناء الوطن، والاستعداد الدائم هو الذي يكفُلُ عدم تكرار المجازر والمآسي التي أوقعها الصليبيون والمغول.

وظل مستنفراً حتى هدأت حركة المغول. وما إن تحركوا ثانيةً حتى أصدر الأمر إلى العشائر العربية بمقاومتهم. فنازلوهم بقيادة الأمير عيسى بن مهنا، وتراجعت قوات المغول أمام اليقظة الدائمة.

شاءت الأقدار أن يختتم الملك الظاهر حياته بانتصار ساحق على قوات مغول فارس. وبعد الانتصارات التي أحرزها على الحدود الشرقية المتاخمة للعراق، رأى أنه من الحيوي العمل على تأمين الحدود الشمالية المتاخمة لبلاد سلاجقة الروم الخاضعين لسيطرة مغول فارس.

ووجد معين الدين سليمان البرواناه، أي الحاجب، وهو صاحب الأمر في دولة سلاجقة الروم ،أن المصلحة تقتضي أن يستفيد من قوة الدولة المملوكية المتصاعدة والصامدة في وجه العدوان والتسلط المغولي، بأن يدخل سراً في تحالف مع الملك الظاهر. فراسله مبيناً له بأنه سينضم إليه ضد المغول، إذا دخلت قواته أراضي دولة سلاجقة الروم. ووجد

الملك الظاهر أن الظروف مواتية لتأمين الحدود الشمالية، ولإلحاق هزيمة جديدة بمغول فارس. وحشد قواته للمعركة.

وما إن دخلت القوات المملوكية حتى اصطدمت مع الجيش المغولي في معركة أبلستين الطاحنة في العام٦٧٥هـ / ١٢٧٦ م. وفي هذه المرة أيضاً حالف النصر الجيش المملوكي، وغطت أشلاء ٧٠٠٠ من الجنود المغول ساحة المعركة، ولحقت هزيمة مريرة ماحقة لم يستطع الجيش المغولي جمع فلوله بعدها، ولا القيام بهجمة مضادة سريعة .

وفي إثر هذا النصر الحاسم دخل الملك الظاهر قيصرية عاصمة سلاجقة الروم، ونزل في دار السلطنة، وتربع على عرشها، وخُطِبَ له على منابرها، وغادرها بعد يومين. وإن فداحة الهزيمةَ اضطُرَّتْ أبغا خان فارس أن يحضر بذاته إلى مسرح المعركة في أبلسين. ويروى إنه بكى عندما شاهد أشلاء القتلى من جنوده، فانتقم من أهالي العاصمة قيصرية، وقتل عدداً كبيراً منهم لترحيبهم بالملك الظاهر، وأوقع فيها مذبحة مريعة، وأمر بقتل معين الدين سليمان البرواناه. إلا أن هذه الملاحقة الدائبة للمغول أدت إلى انحسار خطرهم لمدة عقود.

الملك الظاهر والصليبيون

عندما تولى الملك الظاهر بيبرس مقاليد الحكم كان قد أتى على الغزو الصليبي للمشرق العربي، وعلى تأسيس كياناته في الرها، وأنطاكية، وطرابلس، والقدس ما يزيد عن ١٦٠ عاماً. وقد ظلَّ الصراع قائماً طيلة هذهِ الفترةِ ما بين غزاة يحاولون على الدوام تعزيز احتلالهم، وبين مقاومة تسعى لجمع عناصر القوة لتحرير الأرض وطرد المحتل. وظلت هذه المعادلة ما بين مدٍّ وجزر، فاتضح خلال ذلك أن الوحدة هي السبيل إلى التحرير.

وعندما اتحدت الموصل وحلب بقيادة عماد الدين زنكي سقطت الإمارة الصليبية الأولى، وهي الرها في عام ٥٣٩هـ / ١١٤٤ م، ولم يكن قد مضى على تأسيسها خمسون عاماً. وعندما وُحِدَت الشام بأكملها، ثم ضُمَّت مصر إلى الوحدة، ونشأت في ظل نور الدين الزنكي دولة من الموصل شرقاً حتى ليبيا غرباً، ومن منطقة الجزيرة الفراتية إلى الحجاز

واليمن جنوباً، تحقق الانتصار في معركة حطين في عام ٥٨٣ هـــ / ١١٨٧ م بقيادة صلاح الدين الأيوبي، وتمَّ تحرير القدس من الصليبيين، ونصب في الجامع الأقصى المنبر الذي كان نور الدين الزنكي قد أمر بصنعه في حلب قبل عشرين عاماً من تحرير القدس، وحشد له مجموعة من أبرع الحرفيين والفنانين.

والجدير بالذكر أن الصهاينة في أيامنا هذه، عندما احتلوا القدس في عام ١٩٦٧ لم يتحملوا وجود ما يُذَكِّرُ بالتحرير، فتآمروا وأحرقوا المنبرَ في العام التالي لاحتلالهم القدس. وكان نور الدين الزنكي قد حرر المدن والبلدات الواقعة على يمين نهر العاصي، وحال دون وقوع مصر تحت الاحتلال الصليبي، وأرسل لهذا الغرض ثلاث حملات من الشام إلى مصر. فدخل مع الصليبيين في حروب لإنقاذ مصر، وتوحيدها مع الشام. وإن إعادة وحدة مصر والشام هي التي أدت إلى التحرير لاحقاً في ظل الملك الظاهر، ومن بعده قلاوون ثم الأشرف خليل.

رأينا كيف برز بيبرس قائداً عسكرياً وفارساً مغواراً في رد العدوان الصليبي على دمياط والمنصورة، وكيف أبلى بلاءً حسناً في معركة المنصورة، وأسر الجيش الصليبي.

وكان قدره أن يرتِّبَ لمواجهة عدوين خطيرين في آن واحد هما: المغول من الشرق والفرنج من الغرب. ولئن وجَّه في بداية حكمه جل اهتمامه لردع الغزو المغولي فإنه لم يَنسَ الصليبيين، وخاصة إمارة أنطاكية التي تحالفت مع المغول، بل كان سكوته في البداية من باب الإمهال وليس الإهمال.

فقد ظهرت مؤشرات نواياه تجاههم عندما قصدته وفود صليبية في ٦٦١هـ/ ١٢٦٣م، وهو في الشام يتفقد قواته، ويعيد توزيعها، فقابلهم بجفاء وقال لهم : «ردوا ما أخذتموه من البلاد، وفكوا أسرى المسلمين جميعهم، فإنني لا أقبل غير ذلك»، وطردهم من مجلسه.

في ٦٦٣ هـ/١٢٦٥م صدَّت قوات الملك الظاهر هجوم المغول على البيرة الواقعة على نهر الفرات، التي كانت تعتبر أهم الحصون وقتئذ في وجه المغول. ولم يجد ضرورة للحضور، فأخذ القوات المرافقة له إلى فلسطين، ونصب خيمة كبيرة ركبت في داخلها سراً خمسة منجنيقات من الطراز الأندلسي المغربي يرمي الواحد منها حجراً يزن ١٤٠ رطلاً شامياً. واستدعى حجَّارين ونجَّارين، وصُنعتْ سلالم للإغارة، ثم حشد الجيش أمام بلدة قيسارية (قيصرية) جنوبيَّ مدينة حيفا على وجه مفاجئ.

وأذعن السكان إلى الاستسلام ، وانسحب جنود العدو إلى قلعة المدينة البالغة التحصين، واستعملت جميع الأسلحة والمنجنيقات والنار الإغريقية مع كثافةً في رمي السهام ،وكان الملك الظاهر نفسه يرمي من فوق برج الكنيسة ،وعمد إلى قطع أي فرصة لقدوم النجدات. عندها تخلى المحاصرون عن القلعة، وانسحبوا إلى السفن الراسية، أو القادمة للنجدة. وأمر الملك الظاهر بيبرس بتدمير المدينة وتسويتها بالأرض، لئلا تعود قيسارية رأس جسر لجيش صليبي.

وبعد أن انتهى من قيسارية هاجمت بعض قواته حيفا، وسيطرت عليها في يوم واحد، ثُم حشد منجنيقات إضافية أمام أرسوف شماليَّ يافا، واستسلمت المدينة. وسيق الأسرى إلى الكرك، وسويت المدينة بالأرض. ولم يمض وقت طويل حتى حاصر صفد، وهي مدينة هامة على الطريق الرابط بين دمشق وعكا، ولها قلعة ضخمة.

ونظراً لحصانتها فقد طلب المجانيق من دمشق، وأحاط بها ، واستغرق الحصار والقتال تحت قيادته أكثر من شهر. وطلب المحاصرون الأمان وحلف اليمين على ذلك. عندها أجلس الملك الظاهر أحد أمرائه مكانه، وحضرت الرسل

واستحلفوه، فحلف لهم الأمير، وهم يظنونه الملك الظاهر، فإنه كان يشبهه. وكان أحد الشروط أن لا يأخذوا معهم من أموالهم شيئاً.

وعند الاستسلام وقف الملك الظاهر بنفسه على الباب، وأخرج من كان فيها من الفرسان والمشاة وغيرهم. وعندما اتضح أنهم أخذوا شيئاً من التحف أمر بضرب رقابهم .

وكان لسقوط هذه القلعة الهامَّة صدى كبير، وكتبت البشائر بالنصر، وزينت البلاد. ثم بُثَّتِ السرايا في المناطق التي يحتلها الفرنج، وجرى الاستيلاء على حصون كثيرة، وتم أسر المئات وحصل العساكر على غنائم كثيرة. وأمر الملك الظاهر أن تُعَمَّرَ القلعة وتُحَصَّنَ، وتُنَقَلَ إليها الذخائر والأسلحة. ونقل إليها بعض أهالي دمشق للإقامة في صفد المحررة.

وما إن عاد الملك الظاهر إلى دمشق حتى أخذ يجمع قواته، فشكل جيشاً ضخماً. وجاءه المنصور ملك حماه على رأس جيشه، وأمرهم بالمسير إلى أرمينية الصغرى المتاخمة لإمارة أنطاكية من الشمال، إذ إن ملكها هيثوم تحالف مع المغول، وضم إلى هذا الحلف بيمند أمير أنطاكية وطرابلس. واكتسحت القوات أرمينية الصغرى، والعاصمة سيس، وقتلوا

وغنموا، وكان بين القتلى ابن الملك، وأسر ابنه الآخر ليفون ابن هيثوم.

ومن أبرز أعمال الملك الظاهر فتح أنطاكية في عام ٦٦٦ هـ/ ١٢٦٨ م وهي عاصمة الإمارة الصليبية الثانية التي أسسها الصليبيون في عام ١٠٩٨. وكانت خطته لافتة، إذ قسم جيشه إلى ثلاثة طوابير: توجه الطابور الأول إلى ميناء السويدية لقطع الطريق أمام أية نجدات قادمة من البحر، والطابور الثاني توجه شمالاً إلى دربساك كي لا تصلها نجدات من البر، ورابط الملك الظاهر أمام أنطاكية، حيث اجتمعت الطوابير الثلاثة على مدينة أنطاكية، عاصمة الإمارة الصليبية الأبرز بعد مملكة القدس، وفرض عليها الحصار.

وقد ملكها بالسيف يوم السبت ٤ رمضان ٦٦٦ هـ / ١٢٦٨م. وكانت الغنائم ضخمة. ونظم الأمور في الحال كي لا يتم العبث بثرواتها. فوضع بعض الأمراء على الأبواب لهذا الغرض. وإلى جانب الغنائم، أطلق سراح أسرى من حلب وسواها.

وتعود أهمية هذا الفتح إلى أن أنطاكية مدينة كبيرة مشهورة محيط سورها ١٢ ميلاً، وعدد أبراجها ٣٦٠، وعدد

شرفاتها ٢٤٠٠٠، ولم تكن ضمن فتوحات صلاح الدين بعد حطين. ويعلق المؤرخ ابن تغري بردى بقوله : «كم ترك الأول للآخر». بتحرير أنطاكية سقطت مجموعة من الحصون التابعة لها، ومنها بغراس والقصير ودركوش، وهكذا تم القضاء على إمارة أنطاكية الصليبية، واستعادة معظم الأراضي الواقعة تحت احتلالها.

وبعد تحرير أنطاكية من السيطرة الصليبية التي استمرت ١٧٠ عاماً، دخل الملك الظاهر دمشق في أبهة عظيمة وهيبة هائلة للاحتفال بالنصر الكبير. وقد زينت له البلد، ودقت البشائر فرحاً بالنصر.

وقبل تحريره أنطاكية، كان الملك الظاهر قد فتح يافا وقلعة الشقيف، وأغار على مدينة طرابلس، وفيها الأمير بيمند، وخَرَّبَ قراها، ثم رحل إلى حصن الأكراد (قلعة الحصن)، فحضر إليه رسول ومعه ضيافةٌ، فردها وطلب منهم ١٠٠٠٠٠ درهم دية رجل من عساكره كانوا قد قتلوه، فأرضوه. ورحل عنها ليعود بعد سنتين ويفتحها، وهي أضخم وأحصن قلعة للصليبيين في إمارة طرابلس.

ويعتبر فتح قلعة الحصن من الإنجازات الضخمة لبيبرس، إذ كانت تتخذ في التحصينات الصليبية موقعاً بارزاً. ولذلك الغرض وصلها على رأس جيش كبير، بعد أن اجتاح قلعة صافيتا وحاصرها يوم ١٩ رجب ٦٦٩ هـ/ ١٢٧١ م. واشتد القتال والزحف على أسوارها الحصينة، فطلب أهل قلعة الحصن الأمان، وتسلمها وحشدها بالمواد الغذائية والعساكر وحصنها، وكتب البشائر، وأطلق من كان فيها من الإفرنج. فتوجهوا إلى طرابلس، ثم رحل إلى حصن عكار، ومَلَكَهُ بالأمان، وتوجه الفرنج أيضاً إلى طرابلس. وفي ذلك يقول الشاعر :

يا مليــكَ الأرضِ بُــشرَا كَ قَـــدْ نلْـــتَ الإراده
إنَّ عكـــــارَ يقينـــــاً هُـــوَ عكّـــا وزيـــاده

ومن هناك نزل الملك الظاهر على طرابلس. وأرسل أميرُها يستعطفه، فاشترط تلبية مجموعة من المطالب من أبرزها: تقاسم ملكية طرابلس، وأن يكون له دار وكالة فيها، وأن يعطى جبلة واللاذقية. ولما لم يستجب أمير طرابلس نصب الملك الظاهر المجانيق، وهو ما أدى إلى عقد الصلح

لمدة عشر سنوات وعشرة أشهر وعشرة أيام على أساس الشروط التي فرضها.

وعندما بلغ الملكَ الظاهرَ أنَّ صاحب قبرص الفرنجيَّ خرج إلى عكا، أراد انتهاز فرصة غيابه عن الجزيرة، وأرسل أسطولاً لمهاجمتها. إلا أن هبوب عاصفة عاتية حال دون تحقيق الهدف، فتكسرت قطع الأسطول في مرفأ ليماسول، وأسر العساكر، وهم زهاء ١٨٠٠ رجل، وكانوا يشكلون عدداً كبيراً من جنود البحرية المملوكية ، فعظم ذلك عليه، فقام بإنشاء أسطول جديد في أسرع وقت. وعندما أرسل ملك قبرص إليه رسالة شماتة أجابه بقوله : «أنت خيلكم المراكب ونحن مراكبنا الخيل» .

وهناك رواية طريفه عن شدة اهتمام الملك الظاهر بيبرس بالأسطول، وهي أن رسل قبرص جاءت إليه للشفاعة في حاكم عكا فوجدوه جالساً حيث تشيد السفن بين الأخشاب. وكان الصنّاع والأمراء أنفسهم يحملون آلات الشواني، فراعهم ما شاهدوه.

والشواني جمع شيني أو شونة، وهي أهم قطع الأسطول. فهي مراكب حربية كبيرة ذات أبراج وقلاع للدفاع والهجوم، وتتكون أبراجها من عدة طبقات تقف في الطبقة العليا منها

العساكر المسلحة بالأقواس والسهام، وفي الطبقة السفلى الملاحون بالمجاذيف. وتحتوي على مخازن للطعام وخزانات مياه.

والواقع أن الملك الظاهر بيبرس في منازلته المستمرة للصليبيين والمغول استطاع أن يحجم الكيانات الصليبية إلى حد كبير. فقد قضى على إمارة أنطاكية، وأخذ اللاذقية وجبلة، واستحوذ من إمارة طرابلس على القلاع التي تحول دون سقوطها، وفي مقدمتها قلعة الحصن. وفرض شروطه عليها، وهيأها بذلك للسقوط على أيدي قلاوون في ١٢٨٩م. وأخذ المناطق الحصينة من مملكة القدس الصليبية التي كانت تسيطر على معظم مدن الساحل الفلسطيني وجنوب لبنان، ولم تبق من مدنها القوية سوى عكا وصيدا وصور التي لم تلبث أن سقطت في أيدي الأشرف خليل في ١٢٩١م.

إلاّ أن هذه الأعمال الحربية التي قادها الملك الظاهر، وشملت بلاد الشام، والعراق، وبلاد الروم، وأرمينية الصغرى، والنوبة في شمال السودان، وليبيا لم تتم دون عمل دبلوماسي واسع يدل على براعة في توقيت الأعمال التي كان يقوم بها، ويُعتبر عمله الدبلوماسي موازياً في أهميّتهِ لأعماله الحربية المرموقة وانتصاراته الباهرة

دبلوماسية الملك الظاهر

قامت دبلوماسية الملك الظاهر على أساس لجم تنامي الخطر المغولي، وقطع الطريق على إمدادات أوربا للكيانات الصليبية الاستيطانية في الساحل الشامي. فتحالف أولاً مع بيزنطة في ٦٦٠ هـ / ١٢٦٢م، التي كانت تعاني أيضاً من الاحتلال الصليبي طيلة ستة عقود تقريباً. وفي عام ١٢٠٤م توجهت الحملة الصليبية الرابعة إلى القسطنطينية (اسطنبول)، عاصمة الدولة البيزنطية، وهاجمتها فسقطت في أيديهم. واستمر الحكم الصليبي لبيزنطة حتى عام ١٢٦١م.

واستغل الملك الظاهر سوء العلاقات البيزنطية الصليبية في توطيد العلاقة مع الإمبرطور البيزنطي، فأرسل إليه بطريقاً ملكانياً ليشرف على المسيحيين العرب في دولته. وكان الإمبراطور البيزنطي قد أمر بتجديد جامع القسطنطينية، مما دعا الملك الظاهر إلى تجهيز هذا الجامع بالسجاجيد والقناديل الذهبية والمباخر.

كما أحيا الملك الظاهر الحلف مع الإمبراطورية الرومانية المقدسة وملك نابولي وصقلية، مانفريد بن فريدريك الثاني، وأرسل له في ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م هدية فيها زرافات، وأسرى مغول مع خيولهم التترية، وعدتهم الحربية، وهم ممن أُسروا في معركة عين جالوت.

وترأس البعثة المؤرخ الحموي ابن واصل .وجرت حوارات بينه وبين الإمبراطور في مختلف العلوم. ويبيّن ابن واصل أن معظم أصحاب الإمبراطور وخاصته مسلمون من صقلية، فهو يقول: «يعلن في معسكره بالآذان والصلاة».

وأثناء أحد اللقاءات وجه الإمبراطور كلامه إلى ابن واصل قائلاً: «يا قاضي أنا ما عندي ما أسألك عنه في الفقه والعربية. ثم سأله ثلاثين سؤالاً في علم المناظر (البصريات). فبات تلك الليلة وصَبَّحَهُ بالجواب عنها، فصلّب الإنبرور (الإمبراطور) على وجهه وقال: «هكذا يكون قسيسُ المسلمين»، لأن القاضي(ابن واصل) لم يكن معه كتب في تلك السفرة، وإنما أجابه عن ظهر قلب. وقام ابن واصل أثناء إقامته في إيطاليا بتأليف رسالة في المنطق سماها «الرسالة الأنبروريه» أهداها إلى الإمبراطور مانفرد. كما ارتبط الملك الظاهر بحلف مع ملك قشتالة (إسبانيا) وتبادل الهدايا معه.

إن مركز الملك الظاهر القوي وفتوحاته جعلت عدداً من أمراء الفرنجة في الساحل الشامي يعقدون اتفاقيات هدنة طويلة معه، ومنها الهدنة مع إيزابيلا بنت يوحنا دبلين، ومدتها كالمعتاد عشر سنوات وعشرة أشهر وعشرة أيام.

وكانت هذه الملكة كلما عزمت على السفر ومغادرة بيروت، ذهبت إلى الملك الظاهر، واستودعته بلادها إلى أن تعود. وقد تزوجت إيزابيلا ٦٧٠ هـ/١٢٧٢م) إنجليزياً، يدعى هامو الغريب، من أتباع الأمير إدوا (ملك انجلترا فيما بعد) ووهبته نفسها ومملكتها. إلاّ أنه مات في العام التالي، وأوصى قبل وفاته بوضع زوجته وبيروت تحت حماية الملك الظاهر. لكن ملك قبرص أقدم على خطفها كي يزوجها هناك. فطالبه الملك الظاهر بتنفيذ وصية هامو، وإعادة إيزابيلا إلى بيروت، فأذعن للطلب .

واتخذت إيزابيلا حرساً لها من المماليك، واستمرت في الحكم دون أية عراقيل، وتزوجت أكثر من مرة. ومما جاء في بنود الهدنة معها، أن يكون جميع المترددين في بلاد الظاهر وبالعكس آمنين مطمئنين على نفوسهم، وأموالهم، وبضائعهم، براً وبحراً، ليلاً ونهاراً. كما تلزم الهدنة الملكة أن لا تسمح لأحد من الفرنج، على اختلافهم، بقصد مملكة

السلطان من جهة بيروت وما يتبعها، وتمنع من ذلك، وتدفع كل متصرف بسوء. وتكون الأقاليم من الجهتين محفوظة من المجرمين المفسدين.

ويعتبر التحالف الذي عقد مع بركة خان مغول القفجاق أو خان القبيلة الذهبية ضد هولاكو الأكثر حساسية بين تحالفاته. ولما كان بركة خان أوّلَ من اعتنق الإسلام بين أولاد جنكيز خان، فقد سهل أمر التحالف، وتطورت العلاقات بينهما، وجرى تبادل البعثات والهدايا. وتزوج الملك الظاهر بيبرس ابنته، وسمى ابنه وولي عهده بركة خان على اسمه، وأمر أن يدعى له على منابر القاهرة والقدس ومكة والمدينة.

وتعود أهمية هذا التحالف الى أنه موجه ضد مغول فارس بزعامة هولاكو وابنه أبغا، أخطر الأعداء المجاورين للدولة المملوكية، والمتربصين بها لاقتناص أية فرصة للهجوم عليها. فقد كتب بركة خان في ٦٦١ هـ / ١٢٦٣ م إلى الملك الظاهر يقول : «قد علمتَ محبتي للإسلام، وعلمتَ ما فعل هولاكو بالمسلمين، فاركب أنت من ناحية حتى آتيه أنا من ناحية حتى نصطلمه (نستأصله) أو نخرجه من البلاد، وأعطيك جميع ما كان من البلاد». فاستصوب الظاهر هذا الرأي.

لقد وقعت عدة حروب بين مغول القفجاق ومغول فارس خففت من خطرهم. ودعم الملك الظاهر هذا التحالف بتحالف سري مع سلطان سلاجقة الروم ضد أبغا بن هولاكو، والأطماع المغولية في آسيا الصغرى. وجدير بالذكر أن معركة الأبلستين، التي قدر لها أن تكون خاتمة الانتصارات التي حققها الظاهر بيبرس قبيل وفاته، كانت بالتعاون مع البرواناه، زعيم سلاجقة الروم، وشكلت مذبحة حقيقية لمغول فارس. وبعد عودته من المعركة دخل الملك الظاهر دمشق، وكان يوماً مشهوداً احتفالاً بالنصر الكبير.

لقد برز الملك الظاهر في الحروب، وسُمي الأسد الضاري، وبرز في السياسة، وأدرك دوماً أن القوة الحقيقية هي في متانة وحدة الدولة، وعدم إتاحة المجال للقوى الانفصالية، والاعتماد على قوة الشعب. فلم يكن الجيش وحده هو المقاتل بل كان إلى جانبه المتطوعة، وأبناء العشائر العربية، وعشائر منطقة الفرات، وفي مقدمتهم عرب خفاجة. ووصلت هجمات القبائل العربية حتى بغداد.

الملك الظاهر بيبرس والعلماء

لم يكن الملك الظاهر من رجال العلم أو الأدب، كما هو شأن عديد من ملوك الأيوبيين، بل كان فارساً محارباً وسياسياً يقدر أهل العلم، ويعرف مكانتهم، ويعتمد عليهم ويقربهم ،وينطوي تحت مشورتهم في كثير من القضايا، ويتحمل جرأة بعضهم في الآراء الصريحة التي لم تكن تروق له أحياناً . فكان بعضهم يخشن له في الحديث والنصيحة، مثل عز الدين بن عبد السلام (٥٧٧ - ٦٦٠ هـ /١١٨١ - ١٢٦٢م) من مواليد بلاد الشام، وعُرِفَ هذا العالم بسلطان العلماء لغزارة علمه وسعة اطلاعه وقوة حجته وحبه للحق.

وهو الذي وقف في وجه الصالح إسماعيل ملك دمشق الأيوبي، عندما استعان بالفرنجة ضد الملك الصالح أيوب، ووعدهم بأن يسلم إليهم صيدا والشقيف وعدداً من الحصون،

فامتنع عز الدين بن عبد السلام عن ذكر اسمه في الخطبة، وخرج إلى مصر، وتبعه أهالي دمشق لوداعه.

وسعى الملك الصالح إسماعيل أن يسترضيَه، وأرسل له رسولاً وطلب منه أن يعود، وتعاد إليه مناصبه التي كان يشغلها قبل إقالته منها، ويمنح ما هو أرفع مقاماً مقابل الاعتذار وتقبيل يد الملك الصالح إسماعيل، فما كان منه أن قال للوسيط: «والله مسكين ؛ ما أرضاه (الملك الصالح إسماعيل) أن يُقَبِّلَ يدي فضلاً عن أن أُقبل يده. يا قوم، أنتم في واد وأنا في واد، والحمد لله الذي عافاني مما ابتلاكم» .

وقد اتصل به الملك الظاهر بيبرس الذي كان يهابه ويجله ويستشيره في أموره، ولم يبايع خليفة من الخليفتين من بني العباس قبل أن يبايعه الشيخ عز الدين بن عبد السلام. وعندما أراد بيبرس أن يأخذ البيعة لنفسه بالسلطنة جمع الناس من الأمراء والقضاة وأعيان الدولة، وكادت البيعة تنعقد له لولا أن امتنع الشيخ عز الدين عن مبايعته، لأنه لم يثبت لديه عتق بيبرس وحريته وقال له: «يا ركن الدين (لقب الملك الظاهر) أنا أعرفك مملوك البندقدار...». فاستحضر بيبرس شهوداً شهدوا بخروجه من مُلْكِ البندقدار، وأنه صار حراً فبايعه الشيخ.

وقيل إنه لما توفي حضر جمهور كبير تشييع جنازته، منهم رجال الدولة، وأعيان المجتمع، وعامَّة الناس. ونزل الملك الظاهر من قلعة الجبل، وصلى عليه مع الناس. ويروى أنه قال لبعض خواصه: «اليوم استقر أمري في الحكم، لأن هذا الشيخ، لو كان يقول للناس اخرجوا عليه لانتزع الملك مني».

وأما العالم الفقيه النووي ،فكان من بين العلماء الذين يكاتبهم الملك الظاهر للمشورة. وكان النووي يغلظ القول في تقديم رأيه له. ولما توجه الملك الظاهر إلى بلاد الروم لمنازلة المغول فرض على أهل دمشق جباية مال بسبب تجمع الجيوش، فحضر الإمام النووي، وكلمه في ذلك بكلام خشن. فلاطفه الملك الظاهر وقال له: «يا سيدي، مُدّ يدك أعاهدْكَ، متى كسرتُ العدّوَ في هذه الحملة أبطل الجباية، ويكون خاطرك معي».

وقد وجّه إليه أحد الخطباء قوله واعظاً: «أيها السلطان إنك لن تدعى يوم القيامة : «يأيها السلطان»، لكن تدعى «باسمك». وكل منهم يومئذ يُسألُ عن نفسه، إلا أنت، فإنك تُسأل عن رعاياك. فاجعل كبيرهم أباً، وأوسطهم أخاً، وصغيرهم ولداً. فاستعذب وعظه وأجزلَ عطاءه.

وجَّه ابن مالك النحويُّ، صاحبُ الألفية الشهيرة رسالة إلى الملك الظاهر يطلب فيها إعانته على إصلاح حاله، فقدم له معونة تكفيه ضائقة العيش.

على أن علاقة الملك الظاهر مع الشيخ خضر الكردي كانت تتسم بالتميز والحميمية، وتتجاوز المشورة العلمية إلى مناقشة القرار السياسي .فالشيخ خضر تنبأ لبيبرس، وهو أمير، بأنه سيلي الملك. وبالطبع كان لهذا التنبؤ وقع عميق في نفس بيبرس. وعندما تولى بيبرس السلطنة، وأصبح يلقب بالملك الظاهر، زادت ثقته به، وأخذ يعظمه تعظيماً زائداً، وينزل بشخصه إلى زاويته في الأسبوع مرة أو مرتين، ويستصحبه معه في كثير من الأسفار ويستشيره. وكان يرفده بالمال، وبنى له جامعاً يخطب فيه للجمعة، وسمى أحد أبنائه «خضر».

وظل على تلك الحالة مدّةً تزيد عن عقد من الزمن. إلا أن تصرفات مشينة من جانب الشيخ سببت محاكمته، وكاد الظاهر يأمر بقتله، ولكنه سجنه حتى وفاته.

ومن العلماء الذين برزوا في خدمة الملك الظاهر المؤرخ ابن واصل الحموي، سفيره إلى الإمبراطور مانفرد، ومحيي الدين بن عبد الظاهر الذي وضع سيرة الملك الظاهر. وكان

من مرافقيه وسفرائه، وكذلك شأن عز الدين بن شداد الذي فرَّ أمام الغزو المغولي إلى القاهرة، حيث وجد دعم الملك الظاهر، ودخل في خدمته، وألف كتاباً عن حياته.

وعُرِفَ الملك الظاهر بعلاقته بمشايخ الصوفية وصلته الوطيدة بالسيد أحمد البدوي (توفي عام ٦٧٥هـ/١٢٧٦م) في طنطا، فكان يزوره ويتبرك به. كما أنه عندما كان يزور الإسكندرية، ويعتني بتحصيناتها وبالأسطول كان يزور كبار المتصوفين، مثل القبَّاري، تلميذ الشاذلي (توفي ٦٥٦هـ /١٢٥٨م) مؤسس الطريقة الصوفية الشاذلية، والشيخ الشاطبي (٥٩٠هـ/ ١١٩٤م) .

وقام الملك الظاهر بتأسيس عديدٍ من المؤسسات المكرَّسة لاستقطاب العلماء والطلاب، وفي مقدمتها المدرسة الظاهرية على أنقاض قاعات القصر الفاطمي في القاهرة. ولا يستبعد أن يكون قد فكر ببناء مدرسة بدمشق تحمل اسمه، مثل تلك التي شيدها في القاهرة، ولكن عاجلته المنية قبل أن ينفذ فكرته. فأمر ابنُه الملك السعيد ببناء المدرسة الظاهرية مدرسة للشافعية، وأخرى للحنفية، وداراً للحديث، وتربة تحتضن ضريح الملك الظاهر. وتعتبر هذه المدرسة من أجمل المباني المملوكية عمراناً وزخرفة.

وبرزت المدرسة الظاهرية في القرن التاسع عشر نواةُ لمكتبة وطنية جمعت فيها آلاف المخطوطات، وقصدها طلاب العلم من جميع البلدان، واستمرت تقوم بهذه الوظيفة إلى أن تمَّ نقل المخطوطات إلى مكتبة الأسد الوطنية بدمشق.

لقد أمر الملك الظاهر بتجديد الجامعِ الأزهر الذي أقامه الفاطميون عندما أسسوا القاهرة، وأُغلِقَ عندما قضى صلاح الدين الأيوبي على الخلافة الفاطمية في عام ٥٦٧هـ / ١١٧١ م وآل إلى الانهيار، فَصَرَفَ عليه من أمواله، وذلك بعد عودته من حصار طرابلس في عام ٦٦٩ هـ/ ١٢٧١م. وهكذا أُعيدت الخطبة إلى الجامع الأزهر، بعد أن عطلت مائة عام، واستعاد مكانته مركزَ إشعاع علمي كبير.

شخصية الملك الظاهر بيبرس

يتحدث معاصرو الملك الظاهر عن صفاته الجسدية، فيقولون إنه كان طويل القامة، أسمر اللون، جهوري الصوت، أزرق العينين، في إحدى عينيه بقعة بيضاء صغيرة. وكان شهماً شجاعاً لا يهاب الموت، جاء لقيادة الأمة في وقت الشدة، عندما كانت الأمة واقعة بين الغزاة المغول والفرنجة. واتسم بالتيقظ والتحسب للأعداء، لا يغفُلُ عنهم ليل نهار. وعرف بهمته العالية، وعمق فهمه لأمور المنطقة ومستجداتها. واعتنى ببناء الدولة ومؤسساتها.

والعام ٦٥٨ هـ/١٢٦٠ م الذي بدأ فيه حكمه اتسم بتقلبات عجيبة في بلاد الشام. ففي أول السنة كانت الشام تحت حكم السلطان الأيوبي الملك الناصر صلاح الدين يوسف، وفي نصف صفر اجتاحها هولاكو ملك التتار (المغول)، ثم في آخر رمضان صارت للسلطان المملوكي

الملك المظفر قطز، ثم في أواخر ذي القعدة صارت للملك الظاهر بيبرس، وقد استقل بحكم دمشق الملك المجاهد علم الدين سنجر. في ظل هذه التقلبات المتلاحقة تسلم الملك الظاهر بيبرس حكم البلاد سلطاناً للدولة المملوكية. ولكي نفهم مكانة هذه الشخصية التاريخية يجدر بنا أن نلخص مسيرة بيبرس منذ كان رقيقاً يباع ويشترى حتى وفاته.

إن بيبرس اقتيد وهو فتى غض العود إلى الأسر بعيداً عن أسرته وموطنه، لا عون له سوى مقدرته على مجابهة الصعاب، والجسارة على مواجهة المجهول، والصبر وعدم فقدان الأمل. هذا الفتى الرقيق الذي لم يكن مرغوباً لدى النخاسين فطن لقدراته العسكريون، فاشتراه أحد كبار ضباط الملك الأيوبي الصالح نجم الدين أيوب، وضمَّه إلى مماليكه.

وما إن رآه الملك حتى ضمَّه إلى خواصِّ مماليكه، لا بل جعله من كبارهم نظراً لما لمسه لديه من طاقات. وبذلك فإن آفاقاً واسعة فتحت أمام هذا الفتى فدخل في خدمة علية القوم، ورأس الهرم السياسي الملك الصالح أيوب، قبل أن يتجاوز العشرين من العمر. ويوصف الملك الصالح بأنه كان مهيباً، عالي الهمة، عفيفاً طاهر اللسان، شديد الوقار، كثير الصمت. وكان لا يجسر أحد أن يخاطبه عالياً إلا جواباً، ولا

يتكلم أحد بحضرته أبداً. وكانت الطلبات (القصص) توضع بين يديه مع الخدام، فيكتب عليها، وكان لا يخرج أحد من أهل دولته، إلا بعد مشاورته بطلب كتابي ،وكان مغرماً بالعمارة.

لقد تبلورت شخصية بيبرس العسكرية والسياسية في ظل هذا الملك الفذ الذي كانت قوة الدولة الأيوبية ووحدتها إحدى ثمار سياسته. في ظل هذا القائد القوي طور بيبرس عقيدته العسكرية والسياسية، وبرز للعيان طموحه، وتطلعه إلى النفوذ بعد وفاة سيده. وحافظ بيبرس على تبجيله واحترامه للملك الصالح أيوب، وأرسى تقليداً ألزم بموجبه من يرقى من المماليك إلى رتبة أمير أن يؤدي يمين الولاء عند قبر سيده الراحل الملك الصالح أيوب شعوراً منه بأنه خليفته.

هذه الصفات التي عُرِفَ بها الملك من هيبة وقوة ومركزية في الحكم كانت من سمات حكم الملك الظاهر. فوُصفَ بأنه كان شهماً شجاعاً عالي الهمة، مقداماً، جسوراً، معتنياً بأمر السلطنة، يشفق على الإسلام، متحلياً بالملك، له قصد صالح في نصرة الإسلام، وأهله، وإقامة شعار الملك، ويضاف إلى ذلك الكرم، والعدل، والاقتصاد في الملبس والطعام، وكذلك كان جيشه. والملك الظاهر يعتبر نموذجاً

مثالياً للعصامية بتدرجه من فتى ذاق الرق، إلى قائد عسكري فذّ، إلى سلطان ذي سجل حافل بالانتصارات.

إن الملك الظاهر خلال حكمه الذي استمر سبعة عشر عاماَ وشهرين وعشرة أيام لم يكن يعرف السكينة نظراً لعظم المهام. فهو المؤسس الحقيقي لدولة جديدة هي دولة المماليك، والقائد لمسيرة توحيد المنطقة والكفاح ضد الغزو الخارجي لدحر العدوان المغولي، والقضاء على الكيانات الصليبية. وأصبح من قادة التحرير المعدودين. ولم يكن مخططاً للحروب، ومصدراً للأوامر فحسب، بل وكان يشرف بنفسه على أمور الحرب، ويباشر القتال بذاته. وعرف بخفة حركته، وسرعة تنقله بين القاهرة ودمشق

ومما يذكر عن حركته الدائبة، واهتمامه بمواطنيه، أن الملك الظاهر كان يوماً في طريقه من الشام إلى مصر، فتعرضت له امرأة، وذكرت أن ولدها دخل مدينة صور، وأن حاكمها الفرنجي غدر به، وقتله وأخذ ماله. فلم يشأ متابعة طريقه قبل أن ينتصر للمرأة. فَشَنَّ غارة على صور، وأخذ منها شيئاً كثيراً، وقتل من قتل. وأرسل إليه حاكم صور يسأله عن السبب ، فذكر له مكره وغدره بالتجار.

ولما كان الملك الظاهر مضطراً للإسراع بالعودة، ولا يرغب بسحب الجيش فجأة، لِذا لجأ إلى الحيلة، وقال لقائد الجيش: «أَوهِم الناس أني مريضٌ، وأني بالمحفة، وأحضر الأطباء، واستوصف لي منهم ما يصلح لمريض به كذا كذا، وإذا وصفوا لك فأحضر الأشربة (الأدوية) إلى المحفة، وأنتم سائرون».

ثم ركب السلطان الملك الظاهر على خيول البريد، وساق مسرعاً فكشف أحوال ولده (الملك السعيد) واطلع على سير الأمور بالديار المصرية بعده، ثم عاد مسرعاً إلى الجيش. فجلس في المحفة، وأظهروا عافيته، وتبادلوا البشرى بتعافيه. وهذه جرأة عظيمة وإقدام هائل.

وعندما حج الملك الظاهر في ٦٦٧ هـ /١٢٦٩م، سار على طريق الكرك إلى المدينة المنورة، فأحسن إلى أهلها، ونظر في أحوالها، ثم توجه منها إلى مكة. فتصدق على المجاورين، ثم وقف بعرفة وطاف طواف الإفاضة، وفتحت الكعبة فغسلها بماء الورد وطيبها بيده. ثم وقف بباب الكعبة، وتناول أيدي الناس ليدخلوا الكعبة، وهو بينهم، ثم رجع فرمى الجمرات.

وعاد مسرعاً إلى المدينة ثم الكرك، وأرسل البشير إلى دمشق بقدومه سالماً. فخرج الأمير جمال الدين آقُوش النجيبي ليلتقي البشير في ٢ محرم، فإذا هو السلطان نفسه يسير في الميدان الأخضر (ساحة المرجة بدمشق)، وقد سبق الجميع. فتعجب الناس من سرعة سيره، وصبره، وجلده، وفرحوا بذلك، وأراح الناس من تلقيه بالهدايا والتحف، وهذه كانت عادته. ثم ساق من فوره حتى دخل حلب في ٦ محرم ليتفقد أحوالها، ثم عاد إلى حماة، ورجع إلى دمشق، ثم سار إلى مصر فدخلها يوم الثلاثاء ٣ صفر.

لقد كانت سرعة الملك الظاهر وجرأته النادرة وبراعته في التنظيم سرَّ نجاحه. وكانت طريق البريد تخترق أرجاء الدولة حاملة الأخبار من عواصم الولايات إليه، والدليل على ذلك وصول البريد من القاهرة إلى دمشق في ثلاثة أيام. واهتم بالبريد ورجاله ومحطاته ودوابه، وكانت إحدى وصاياه لكاتب الإنشاء مواصلته بالأخبار، وما يتجدد من أخبار التتار والفرنج، وقال له : «إن قدرتَ ألا تُبَيِّتَني كل ليلة إلا على خبر، ولا تصبّحني إلا على خبر فافعل». وهذا الاهتمام جعله يعتمد أيضاً الحمام الزاجل؛ فبنى له الأبراج. وكان السلطان يتنقل بفرسانه بسرعة غير معهودة، ويباغت

المدينة في الوقت الذي يعتقد أهلها أنه ما زال في موضع بعيد عنها. وفي ذلك يقول الشاعر :

يوماً بمصرَ ويوماً بالحجازِ ويوماً

بالشــامِ ويومــاً في قــرى حلــبَ

ومن مجازفات الملك الظاهر، أنه تنكر في ثياب فقيه، وانضم إلى وفد مكلف بالتفاوض على بنود الصلح مع أمير طرابلس الشام الفرنجي، ليختبر قدرة المدينة على الصمود في حالة مهاجمتها.

كما لجأ إلى الحيلة في فتح قلعة الشقيف، إذ أخذ من رجال بريد الفرنجة كتاباً من أهل عكا إلى الشقيف يعلمونهم فيه بقدوم السلطان، ويأمرونهم بتحصين البلد ونقاط الضعف. وعلى الفور استدعى رجلاً من الفرنج، فأمره أن يكتب بدله كتاباً على ألسنتهم إلى أهل الشقيف، يحذر فيه الملك من الوزير، والوزير من الملك، ويرمي الخلاف بين رجال الدولة. فوصل الكتاب إليهم، وأوقع الخلاف بينهم. وجاء الملك الظاهر فحاصرهم، ورماهم بالمنجنيق فسلموه الحصن، وأجلاهم إلى صور.

لقد أحصيت الحملات التي نظمها الملك الظاهر بيبرس خلال فترة حكمه التي تجاوزت سبعة عشر عاماً ، فبلغت

٣٨ حملة، قاتل شخصياً في ١٥ معركة منها. وقطع في سبيل حملاته العسكرية ٤٠٠٠٠ كم. ونتيجة لنشاطه العسكري والسياسي الدائب استبعد الخطر الثنائي المغولي والفرنجي بمنازلته المغول بضع مرات، والأرمن خمس مرات، وهزم الفرنجة في ٢١ معركة، ولم يهزم في أي معركة. وإن معاصره ابن خلكان مؤلف كتاب وفيات الأعيان كان محقاً عندما قال: «إن الظاهر بيبرس كان ملكاً عاليَ الهمة، لم نرَ في هذا الزمان ملكاً مثله في عزمه، وهمته، وسعادته، وفتح من حصون الفرنج والإسماعيلية ما أعيا من تَقَدَّمَهُ من ملوك الإسلام، وذلك في مدة مملكته، وكسر التتر دفعات، آخرها في أواخر سنة خمس وسبعين وستمائة بحدود بلاد الروم، ووصل إلى قيسارية (قيصرية عاصمة سلاجقة الروم)، وجلس على سرير الملك بها، ثم عاد إلى دمشق» .

ومما يسوقه المؤرخون من غرائب المصادفات، أن أول ما فتحه الملك الظاهر بنفسه قيسارية على الساحل الفلسطيني، وآخر ما فتحه قيسارية عاصمة سلاجقة الروم، وأول جلوسه على مرتبة السلطنة المملوكية يوم الجمعة ١٧ ذي القعدة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م، وأخر جلوسه في تخت سلطنة آل

سلجوق بقيسارية الروم يوم الجمعة ١٧ ذي القعدة ٦٧٥هـ/ ١٢٧٦م، وأن أول من بنى أنطاكية اسمه بالعربية هو الملك الظاهر وآخر من ملكها الملك الظاهر ركن الدين بيبرس.

إن قائداً بهذه الانجازات الضخمة، والسجل الحافل بالانتصارات، حظي ولا شك بحرمة ومهابة لدى رعاياه مهما اختلفت مراتبهم. فكان الأمراء يهابونه، حتى إن أحدهم لم يكن يقدر على زيارته إلا مأذوناً له. كما كان حكام وقادة الدول المجاورة لدولته الواسعة الأرجاء يخشونه، ويتفادون إثارة سخطه.

ونقع على عديدٍ من القصص حول حرمته ومهابته،ومنها أن يهودياً دَفَنَ بقلعة جعبر عند قصد التتار لها مصاغاً وذهباً، وهرب بأهله إلى الشام واستوطن حماة. فلما أمن كتب إلى صاحب حماه يعرِّفُهُ، ويسأله أن يُسَيِّرَ معه من يحفظه، ليأخذ خبيئته ويدفع لبيت المال نصفه. فأبلغ ملك حماة الملك الظاهر بذلك، فرد عليه الجواب أنه يوجهه مع رجلين ليقضيَ حاجته. فلما وصلوا إلى الفرات، امتنع من كان معه من العبور، فعبر اليهودي وحده.

فلما وصل وأخذ الحفر هو وابنه، وإذا بطائفة من العرب على رأسه، فسألوه عن حاله، فأخبرهم فأرادوا قتله، وأخذ

المال. فأخرج لهم كتاب الملك الظاهر موجهاً إلى من عساه يقف عليه. فلما رؤوا المرسوم كفوا عنه، وساعدوه حتى استخلص ماله، ثم توجهوا به إلى حماة، وسلّموه إلى ملك حماه، وأخذوا توقيعه بذلك.

ومنها أن جماعة من التجار خرجوا من بلاد العجم قاصدين مصر، فلما مروا بسيس عاصمة أرمينية الصغرى منعهم صاحبها من العبور، وكتب إلى أبغا ملك التتار (المغول) فأمر أبغا بالقبض عليهم، وإرسالهم إليه. وبلغ الملك الظاهر خبرهم، فكتب إلى نائب حلب أن يكتب إلى نائب سيس، إن هو تعرض لهم بشيء يساوي درهماً واحداً أخذت عوضه مراراً. فكتب إليه نائب حلب بذلك فأطلقهم، وصالح أبغا بن هولاكو على ذلك بأموال جليلة، حتى لا يخالف مرسوم الظاهر، ولو تحت حكم غيره لا تحت حكم الظاهر.

ومن الحكايات التي كانت تروى عن هيبة الملك الظاهر داخل أرجاء دولته وخارجها، أنه منح تجاراً كُتُبَ توصية للتجار المترددين إلى بلاد القفجاق، بإعفائهم من الصادر والوارد، كان يُعملُ بها حيث حلوا من مملكة بركه خان وابنه منكوتمر وبلاد فارس وكرمان.

ويروى أنه أعطى بعض التجار مالاً ليشتري به مماليك وجواري من الترك، فشرهت نفس التاجر في المال فدخل قراقورم من بلاد الترك واستوطنها. فوقع الملك الظاهر على خبره، فبعث إلى منكوتمر في أمره، فأحضروه إليه محروساً إلى مصر. وله أشياء كثيرة من ذلك.

وكان الملك الظاهر يحب أن يطلع على أحوال أمرائه وأعيان دولته حتى لم يخف عليه من أحوالهم شيء، وكان يقرب أرباب العلماء من كل فن وعلم، وكان يميل إلى التاريخ وأهله ميلاً زائداً ويقول: «سماع التاريخ أعظم من التجارب». وكانت ترد عليه الأخبار وهو بالقاهرة بحركة العدو، فيأمر العسكر بالخروج، وهم زيادة على ٣٠٠٠٠ فارس فلا يبيت منهم فارس في بيته.

وكان جنوده وقادتهم محط اهتمام الدولة في حالة الاستشهاد أو الأسر. فقد اعتنى برعاية الأيتام وافتكاك الأسرى. وعندما تحطمت سفن الأسطول الذي أرسل لمهاجمة قبرص، وأسر معظم أفراد القوة البحرية، دأب الملك الظاهر على افتكاكهم من الأسر. وأوفد حاجبه إلى صور لهذا الغرض، فبالغ الفرنج في دية الرؤساء منهم، واحتجزوهم في سجن بعكا. فأمر الملك الظاهر نائبه في

صفد أن يتحيل في سرقة هؤلاء، فأغرى السجانين بالمال، وأُخرجوا على مركب، وكانت الخيل بانتظارهم. فركبوها ولم يدرِ بهم أحد في عكا. وقامت فتنة بسبب خروجهم من الأسر .

أما جاهزية الجيش فكانت على الدوام في رأس الأولويات. فالميادين كانت تحيط بكل مدينة، وتقوم فيها تدريبات يومية تكون أحياناً شبيهة بالمناورات والاستعراضات المثيرة للإعجاب والدهشة.ومن ذلك الأمرُ الذي أصدره في رمضان ٦٧٢ هـ/١٢٧٤م لجماعة من عساكره للعب القبق ورمي النشاب.

وجاء في وصف ذلك: «وركب السلطان من مماليكه في ألوف كالنجوم أنواراً، وكالأسود توثباً، ويختال الطرف كما يختال نشوان تراه وهو لا يدرى أنك سلطان. ودخلوا في الطعن بالرماح، وأخذ السلطان الحلقة، للقيام بألعاب ورمي النشاب. وجعل لمن أصاب من الأمر أفرساً من خيله الخاص. واستمر ذلك أياماً، فصرف جملةً من الخيل، وتبرع في دخوله وخروجه، تارة بالرماح، وتارة بالنشاب وبالدبابيس».

وساق يوماً على عادته في اللعب، وسل سيفه، وسل مماليكه سيوفهم، وحمل هو ومماليكه الخواص حملة رجل

واحد. فلم تر الناس إلا سيوفاً تبرق، وصدمات تطرق، وهال الناسَ ذلك المنظرُ العجيب، وكادوا يهلكون رعباً. وقال أحد الشعراء في ذلك:

لا تراه في السلم والحرب إلا

بين رمـــح وصارم وَسِــنانِ

لا كما يفعل الملــوك قديماً

في ســرور وفرحـــة وتـهانِ

بين دف وبين حبك تراهم

ودنـــــان مملــوءة وقيــانِ

وكذلك ينسب إلى الملك الظاهر أنه كان عسوفاً عجولاً في تصرفاته تجاه خصومه، يبطش بهم دون تَرَوٍ، وكثير المصادرات والجبايات من الشعب ليمول الحروب والمشاريع الكبرى.

هذا الرجل الذي يحفل سجله بفيض من البطولات ، والفروسية، والانتصارات، والفتوح، عوضاً عن الهزائم، والدمار، والمجازر التي لحقت بالمنطقة من جانب المغول والفرنجة، أثَّر في وجدان الشعب، وكان الناس يعتقدون، بأن الله أقامه لهم لشدة احتياجهم إليه في هذا الوقت الشديد

والأمر العسير. فهو في نظرهم المنقذ الذي طال انتظاره، ليتم ما بدأه صلاح الدين الأيوبي من تصفية آثار العدوان الصليبي، أو لينقذ العالم من ذلك المد المغولي الكارثي. فدارت على ألسنة الناس روايات عن هذه الشخصية تشكلت منها قصة شعبية، دُوِّنَ بعضها، وأضيفت إليها حلقات لتشكل سيرة الملك الظاهر بيبرس. وأصبحت رواية مسلسلة يتناقلها القصاصون ويحفظونها عن شيوخهم.

وعُرِفَ الحكواتية الذين يروونها بالظاهرية . وتدور أحداثها حول سيرة بطل هو الظاهر بيبرس، يشاركه أبطال يواجهون عدواً جباراً مع أنصاره،هذا العدو هو جوان. فالمعارك كلها تقوم بين فريقين: الأول فريق العرب والمسلمين يتزعمه بيبرس، والثاني فريق الصليبين يتزعمه جوان.

وتبدأ السيرة بالدولة الأيوبية ومناصرتها لخليفة المسلمين، ثم تتقصى أثر ملوكها في مصر والشام. وتتوسع في أخبار الملك الصالح أيوب، لأنه استقدم الظاهر بيبرس. وهي تفيض في وصف هذا البطل منذ نشأته، وتروي تآخيه مع الفداوية أي الفدائيين من الإسماعيلية، أو كما تسميهم أبناء إسماعيل. كما تشير السيرة إلى رضى الأولياء عنه، وتبني

السيد أحمد البدوي (توفي في طنطا٦٧٥هـ /١٢٧٦م) للظاهر بيبرس. وتحاول أن تبرز علاقات شجرة الدر بالمملوك الأول أيبك التركماني. وتتعقب بيبرس في المناصب التي تولاها، وفي إيثاره العدل والخير، كما ينبغي أن يكون الحاكم في ذهن الشعب، وتستمر في سرد الأحداث حتى استتباب الأمر له في مصر والشام.

وقسمت السيرة إلى خمسة بحور أو أقسام، وهي الأكراد الأيوبية -الظاهر بيبرس - الفداوية - أمراء البحر - الخرافة. فقد نسبت السيرة نشأة الأكراد الأيوبيين إلى أرومة عربية مجيدة، وقالت إنهم من نسل حبيب النجار، وهو من الأولياء. وتابعت مسألة تأسيس الدولة الأيوبية وحكامها وصولاً إلى الملك الصالح أيوب، فاهتمت به غاية الاهتمام. فهو الذي أعاد للدولة هيبتها بقوة شكيمته، ووقف في وجه الصليبين، وقام بتنشئة المماليك وكان لبيبرس علاقة خاصة به.

لقد صورت السيرة بيبرس بطلاً كما ينبغي أن يكون في أذهان الشعب، فهو المخلِّصُ، ينتظره الناس بصبر نافد فيرفع عن كواهلهم الظلم ، ويوزع الأمر بينهم بالقسط، تسبقه الإرهاصات المنبئة بظهوره. وكم كان أصحاب السيرة بارعين في تفسيرهم لقب الظاهر الذي تلقب به بيبرس على

لسان الملك الصالح أيوب: «اظهر يا ظاهر»، أي إنه الولي المنتظر. وبذلك فإنه يأتي بالخوارق الوافرة، وجعلوا بصره حديداً يرى ما لا يراه الناس، فتكشف له كنوز الأولين، ولكنه لا يعمل بما لا يعلم، لأَنَّ كل شيء له حكمة. ويضاف إلى كل ذلك خوارق وأدوات مسحورة تتحكم بالأشياء، مثل طاقية الإخفاء، وخاتم الملك (اللبيك).

إن لسرد السيرة تقاليده، وللرواة (الحكواتية) الذين يحيون السهرات أسلوبهم الخاص، فهم يتفاعلون مع جمهورهم المنقسم دائماً إلى حزبين، إذ يجلس الحكواتي في موقع مرتفع ليشاهده الجميع. وعندما ينشد الشعر يقف لترافقه الربابة، ويصطنع شيئاً من التمثيل، فيحاكي اللهجات بتقليده المغربي والرومي والنوبي والتركي، ويثور تبعاً لمقتضى الحال. وظلت سيرة الملك الظاهر إلى جانب السيرة الهلالية، وسيرة عنترة بن شداد وغيرها على مدى قرون مادة الحكايات التي تُحيا بها السهرات في المقاهي الشعبية والاجتماعات، وهي أشبه ما تكون بالروايات المسلسلة.

وفاة الملك الظاهر بيبرس ووراثة الحكم

بعد عودة الملك الظاهر إلى دمشق من حملته المظفرة على دولة سلاجقة الروم الخاضعة لسيطرة مغول فارس، وتوجيه ضربة ساحقة للجيش المغولي في معركة أبلستين، وجلوسه على عرش السلطنة في قيسارية (قيصرية)، عاصمة سلاجقة الروم، نزل بالقصر الأبلق المطل على الميدانين الأخضرين ونهر بردى.

وكان شغوفاً بشرب القمز، وهو نبيذ يعمل من حليب الخيل. ولكن توعكت صحته بعد تناوله هذا المشروب التتري، ثم اشتكى من حرارة في جوفه. فَصُنِعَ له دواءٌ لم يكن عن رأي طبيب، فلم يؤثر فيه بل تضاعف ألمه. عندها أُحضر الأطباء فأنكروا ما تناوله من الدواء، وأجمع رأيهم على إعطائه دواء مسهلاً سقوه إياه، فلم ينجح، فخلطوه بدواء آخر أدى إلى إفراط في الإسهال، والنزيف، فتضاعفت حمّاه وضعفت قواه. وتزايد عليه المرض إلى أن قضى نحبه يوم

الخميس ٢٨ محرم ٦٧٦ هـــ / ١٢٧٧ م في القصر الأبلق جوار الميدان الأخضر (موضع التكية السليمانية حالياً). ويقال إن سبب وفاته هو السم .

ويتفق عديدٌ من الكتّاب والمؤرخين في روايتهم ظروف وفاة الملك الظاهر الذي كان دون الخامسة والخمسين من العمر حين وفاته. ويوردون قصة لافتة ذات أهمية في الكشف عن جانب من شخصيته، وتتسم إلى حد بعيد بالواقعية.

وتذهب الرواية إلى أن الملك الظاهر كان ممّن يميلون إلى تصديق المنجمين. وحدث أن انكسف القمر كسوفاً كلياً بعد وصوله دمشق عائداً من ساحة الحرب ضد المغول في أبلستين، وشاع بين الناس أن ذلك ينبئ بموت رجل عظيم جليل القدر. فأراد الملك الظاهر أن يصرف التأويل إلى غيره.

فاستدعى شخصاً من الأيوبيين، يقال له الملك القاهر، ولد الناصر داؤود. وأحضر قمزاً مسموماً، وأمر الساقي بسقي الملك القاهر المذكور، فمات بعد ذلك بقليل. وأما الملك الظاهر فحصلت له حمى محرقة في جوفه، ولم ينفعه الدواء، وتمرّض من ذلك أياماً، حتى كانت وفاته بالقصر الأبلق بدمشق.

رغم أن الملك الظاهر كان قد رتب مسألة وراثة الحكم من بعده، وأعلن في السنوات الأولى من عهده ابنه بركة خان وليا للعهد، وأخذ له البيعة من أمراء الجيش وكبار الدولة، ولقب بالملك السعيد، فان نائب السلطنة بدمشق وقادة الجيش اتفقوا بعد اجتماعهم على كتم خبر الوفاة، والإسراع بإبلاغ ابنه - وهو حينئذ في القاهرة - وتوخي غاية الحذر.

لقد استغلت حاشيته ظلمة الليل لترتيب دفن مؤقت لجثمانه. ولما كان آخر الليل حمله كبار الأمراء، وجماعة من أكابر خاصته، وتولى غسله وتحنيطه وتكفينه مهتاره (ناظر الخاصة) والفقيه ابن المنجي. ثم جُعل في تابوت، وجعل في بيت من بيوت المماليك البحرية بقلعة دمشق حتى يتم الاتفاق على موضع دفنه. فالملك الظاهر كان قد أوصى أن يدفن على الطريق السالكة، قريباً من داريا، إلا أن ابنه الملك السعيد، بعد توليه الحكم، رأى أن يدفنه داخل سور دمشق. فابتاع دار العقيقي، وأمر أن تغير معالمها، وتبنى مدرسة للشافعية والحنفية. وشرع بالبناء في العام التالي (٦٧٧هـ / ١٢٧٨م).

وهكذا نشأت المدرسة الظاهرية بدمشق، مقابل المدرسة العادلية، لتكون تربة للملك الظاهر ومدرسة ودار حديث

(مدرسة مكرسة لتدريس الحديث النبوي الشريف). وبذلك أقيم ضريحه قرب الجامع الأموي وقرب ضريح صلاح الدين الأيوبي في مدرسة الكلاّسة، ومقابل ضريح الملك العادل الأيوبي.

بعد أن تم الدفن المؤقت بسرية تامة، جرى الإسراع بإبلاغ القاهرة بالحدث الجلل. فقد كتب الأمير بدر الدين بيليك الخازندار إلى ابن الملك الظاهر وولي عهده الملك السعيد مذكرة سرية بخط يده سيَّرها إلى القاهرة، يبلغه فيها بالوفاة. وقام الملك السعيد بدوره بإخفاء الخبر. وفي الوقت نفسه تَصَرَّفَ الأمراء بدمشق على الوجه المعتاد، ولم يُظهِرُوا الحزن حتى لا يصل الخبر إلى عامة الشعب.

لقد تتالت في دمشق الخطوة تلو الأخرى للإعلان عن الوفاة، وترتيب تولي ولي العهد السلطة دون أية اضطرابات. فتوجه الأمير بيليك الخازندار إلى القاهرة، على رأس العساكر الشامية، ومعهم المحفة، وكأن الملك الظاهر فيها، وأنه مريض. وظلوا يخفون موت الملك الظاهر إلى أن وصلوا إلى القاهرة. وقد جعلوا في صدر الموكب مكان تسيير السلطان تحت العصائب (راية عظيمة مطرزة بالذهب عليها ألقاب السلطان واسمه وشارته وهي الأسد) محفة

وراءها السلحدارية والجمدارية (الجمدار هو الأمير الذي يلبِّس السلطان ثيابه) وغيرهم من أرباب الوظائف. كل ذلك يوهم بأن السلطان في المحفة مريض، وكل هيئة الموكب وترتيبه مترافق مع إظهار هيبة السلطان، والحرمة للمحفة، والتأدُّب مع من فيها.

ولما وصلوا إلى مقر السلطنة بقلعة الجبل ترجل الأمراء بين يدي المحفة، واجتمع الأمير الخازندار بالملك السعيد الذي قبَّل الأرض، ورمى بعمامته، ثم صرخ، وقام العزاء في جميع القلعة.

وفي الحال جُمِعَ الأمراء، والجند، وحلفّوهم بالإيوان المجاور لجامع القلعة للملك السعيد، واستتب له الأمر، وخُطِبَ له يوم الجمعة بجوامع مصر والقاهرة، وصُلِيَ على والده صلاة الغائب، وأعلن خبر الوفاة بدمشق في ١٤ صفر ٦٧٦ هـ/ ١٢٧٧م، وشُرِعَ بالعزاء في مصر والشام. وقد رثاه كاتبه وأبرز مؤلفي سيرته محيي الدين بن عبد الظاهر بقصيدة طويلة هذه بعض أبياتها:

ما مثل هذا الرزء قلبٌ يَحْمِلُ

كلاّ ولا صبرٌ جميلٌ يُحْمَلُ

الله أكبـــــر إنهـــــا لمـــــصيبة

منها الرواســـي خيفـــةً تتزلـــزلُ

لَهَفِي على الملك الذي كانت به الد

نيـــا تطيـــب وكـــل قفـــر ينـــزِلُ

الظاهرالسلطان مـــن كانـــت لـــه

منٌ على كـــل الـــورى وتَطَـــوُّلُ

لهفي علـــى آرائـــه تلـــك التـــي

مثل السهام إلى المصالح ترســـل

لهفي على تلك العزايم كيف قـــد

غفلت وكانـــت قبـــل ذا لا تغفـــل

أسفي على تلك الجيوش وقولهـــا

أين الـــذي كنـــا بـــه لا نُخـــذل

لقد خلّف الملك الظاهر عشرة من الأبناء: ثلاثة ذكور، وهم بركة خان، وبدر الدين سلامش، وخضر، وسبع بنات . وتولى السلطنة من بعده الابن الأكبر وولي العهد بركه خان، وأمه بنت زعيم القبيلة الذهبية المغولية، خان بلاد القفجاق، وهو أول من اعتنق الإسلام من حكام المغول.

وكان الملك الظاهر قد شرع بعد استقرار أوضاع الحكم بترتيب مسألة وراثة الحكم من بعده، وركَّز مساعيه على أن يكون الحكم ملكياً وراثياً. ومهد للوصول إلى ذلك بأن جعل الأمراء يقسمون يمين الطاعة لابنه الملك السعيد بركة خان في ٦٦٠هـ/١٢٦٢م، ثم جعله ولي العهد عندما وصلته الأخبار بوصول المغول إلى بلاد الشام في ٦٦٢هـ / ١٢٦٤م، لينوب عنه في مصر أثناء غيابه عنها لصد المغول.

وأقام بهذه المناسبة احتفالاً كبيراً قرئ فيه تفويض عهد السلطنة للملك السعيد بركة خان. وجاء في وصية الملك الظاهر لابنه: «إنك صبيٌّ وهؤلاء الأمراء يرونك بعين الصبيّ، فمن بلغك عنه ما يشوش عليك ملكك، وتَحَقَّقتَ من ذلك عنه فاضرب عنقه في وقته، ولا تعتقه، ولا تستشر أحداً في هذا. وافعل ما أَمَرتُكَ به، وإلا ضاعت مصلحتك».

وقد قرَّبَ الملك السعيد إليه جماعة من المماليك الأحداث، وسرعان ما ازداد نفوذهم، وصاروا يتدخلون في تعيين نواب السلطنة وعزلهم، وفي توزيع الإقطاعات. وأدى ذلك إلى نزاع بين الملك السعيد ونائب السلطنة. وقد استاء الأمراء الصالحية، مثل علم الدين سنجر، وسيف الدين

قلاوون من تحيز السلطان الشاب لمماليكه، وإغداق الأموال عليهم، وإطلاق يدهم في إدارة الدولة.

ونظراً لتفاقم الهوة بين الجانبين، عمل السلطان على التخلص من الأمراء فسجن بعضهم. ونظر كبار الأمراء في عهد والده إلى هذا التصرف ببالغ الجدية، وعرفوا بأنهم مستهدفون جميعاً. ولم يقفوا مكتوفي الأيدي أمام الخطر المحدق، ولم يلبثوا أن تجمعوا في القلعة، وعمدوا إلى توجيه إنذار إليه بضرورة الإقلاع عن هذه الممارسات، وجاء فيه: «إنك قد أفسدت الخواطر، وتعرضت إلى أكابر الأمراء، فإمَّا أن ترجع عما أنت عليه، وإلا كان لنا ولك شأن». على أنه وُجِدَ من سعى للصلح بين الجانبين، فهدأت الأمور إلى حين، وتراكمت الشكوك، وهو ما جعل كُلاًّ من الطرفين يتربص بالآخر ويتحين الفرص للانقضاض عليه .

وأثناء وجود الملك السعيد بدمشق في عام ٦٧٧هـ / ١٢٧٨م، طلب منه جماعته أن يُقصيَ كبار الأمراء، فطلب من سيف الدين قلاوون أن يقود حملة على سيس، عاصمة أرمينية الصغرى، بحيث يرتب للقبض عليه مع بقية كبار الأمراء بعد العودة من الحملة، وأن يوزع إقطاعاتهم .

وعندما بلغ قلاوون الخبر بعد عودته إلى القاهرة قام

بحصار الملك السعيد في القلعة، وقطع الماء عنه. ومع اشتداد الحصار عرض الملك السعيد أن يتنازل لهم عن الشام، فأبوا وصمموا على المضي في الحصار المفروض حتى يرضخ إلى مطلبهم بأن يخلع نفسه من السلطنة. فأذعن للطلب على أن يتركوا له حكم الكرك. فاستُجيبَ إلى طلبه، وتمت تولية السلطنة لأخيه بدر الدين سلامش، وهو طفل لم يتجاوز السابعة من العمر، ولقب بالملك العادل.

وفي تلك الأثناء عرض كبار الأمراء على سيف الدين قلاوون أن يتولى السلطنة، فامتنع عن قبولها، مبرراً اعتراضه بقوله: «أنا لم أخلع الملك السعيد شَرِهاً إلى السلطنة، وحرصاً على المملكة، ولكن حفظاً للنظام، وأنفة لجيوش الإسلام أن يتقدم عليها الأصاغر، والأولى أن لا يخرج الأمر من ذرية الملك الظاهر».

والواضح أن هذا الموقف نابع من معرفة قلاوون، وهو أكبر قادة الملك الظاهر، بأن أغلبية الجيش كانت من أنصار الملك الظاهر وإن أكثر البلاد كان يتولاها موالون للظاهر، لذلك اكتفى بأن يكون أتابكاً للملك العادل بدر الدين سلامش. وبذلك قبض على زمام الأمور.

وعندما تمهَّدَ له الطريق وصفا له الجو رأى قلاوون أن

يتولى بذاته الحكم، فالملك العادل قاصر لا يتجاوز عمره السبع سنوات. عندها أعلن أمام الأمراء قائلا: «قد علمتم أن المملكة لا تقوم إلا برجل كامل». فاتفقوا على خلع الملك العادل، وأرسلوه إلى الكرك، وأُعلِنَ قلاوون سلطاناً. وبذلك زال الملك من بيت بيبرس على يد قلاوون ،وهو من رجال الظاهر، وارتبط معه برباط المصاهرة، إذ إن الملك السعيد تزوج ابنة قلاوون في عام ٦٧٤هـ /١٢٧٦م.

وهكذا لم يستمر حكم ولدي الملك الظاهر بيبرس أكثر من سنتين، وعاد الاستقرار إلى البلاد في ظل الملك المنصور قلاوون ١٢٧٩ -١٢٩٠م وفتح الباب واسعاً لمتابعة الجهاد ضد المغول والصليبيين، وتحرير الأراضي المحتلة. وبذلك استمر النهج السياسي والعسكري والاقتصادي الذي أرساه الملك الظاهر بيبرس .

آراء في أعمال الملك الظاهر ومآثره

لقد حظي الملك الظاهر باهتمام عديدٍ من المؤلفين المعاصرين له والمتأخرين عنه، وأنفقوا الجهد في السعي لحصر أعماله ومآثره، ومن أبرزهم ابن شداد، وابن واصل الحموي، وابن عبد الظاهر، وابن تغري بردي .ونركز خاصة على الترجمة المفصلة التي يخصه بها ابن تغري بردي في كتابه «النجوم الزاهرة»، ونضيف أحياناً إليها فقرات من مؤلفين آخرين .وبذلك يتسنى للقارئ، أن يقف على صورة الملك الظاهر عند معاصريه أو القريبين منه زمنياً.

وتشمل المقتطفات المختارة صدقات الملك الظاهر، وفتوحاته، وعمائره، وأوجه إنفاق المال العام «الكلف» في دولته. ونحاول قدر الإمكان التمسك بالنص كما جاء في الأصل المأخوذ منه.

«أما صدقاته فكان يتصدق في كل سنة بعشرة آلاف

أردب (مكيال ضخم) قمح في الفقراء والمساكين وأرباب الزوايا، وكان يرتب لأيتام الأجناد ما يقوم بهم، على كثرتهم. ووقف وقفاً على تكفين الموتى الغرباء بالقاهرة ومصر، ووقفاً ليشترى به خبز، ويفرق في فقراء المسلمين. وأصلح قبر خالد بن الوليد بحمص، ووقف وقفاً على من هو راتب فيه، من إمام، ومؤذن، وغير ذلك.

ووقف على قبر أبي عبيدة بن الجراح وقفاً مثل ذلك، وأجرى على أهل الحرمين والحجاز، وأهل بدر وغيرهم ما كان انقطع في أيام غيره من الملوك. وكان يُخرِجُ كل سنة جملة مستكثرة يستفك بها من حَبَسَهُ القاضي من المقلين (الفقراء)، وكان يرتب في أول شهر رمضان بمصر والقاهرة مطابخ لأنواع الأطعمة، وتُفَرَّقُ على الفقراء والمساكين».

«أما ما افتتحه من أيدي الفرنج فهي: قيسارية، وأرسوف، وطبرية، ويافا، والشقيف، وأنطاكية، وبغراس، والقصير، وحصن الأكراد (قلعة الحصن)، وعكار، والقرين، وصافيتا، ومرقية. وناصف الافرنج على (قلعة) المرقب، وبانياس، وبلاد أنطرطوس (طرطوس)، وعلى سائر ما تبقى من البلاد والحصون وغيرها.

واستعاد من صاحب سيس أرمينيا دربساك ودركوش ورعبان المزربان وبلاداً أُخَرَ. والذي صار إليه من بلاد المسلمين دمشق وبعلبك، وعجلون، وبصرى، وصرخد، والصلت، وهي التي تغلب عليها سنجر الحلبي؛ وحمص، وتدمر، والرحبه، ودلوبا، وتل باشر، وهذه البلاد انتقلت إليه من الأشرف صاحب حمص؛ وصهيون (قلعة صلاح الدين)، وبلاطنس (المهيلبة)، وبرزية، وهذه منتقلة إليه عن الأمير سابق الدين سليمان بن سيف الدين أحمد، وعن عز الدين ؛ وحصون الإسماعيلية وهي: الكهف، والقدموس، والمنيقة، والعليقة، والخوابي، والرصافة، ومصياف، والقليعة ؛ وما انتقل عن المغيث الكرك، والشوبك؛ وما انتقل إليه عن التتار (المغول) بلاد حلب الشمالية بأسرها، وشيزر، والبيره، وفتح الله عليه بلاد النوبه...».

«وكانت حدود مملكة الملك الظاهر من أقصى بلاد النوبة إلى قاطع الفرات. ووفد عليه من التتار (المغول) زهاء ثلاثة آلاف فارس، فمنهم من أَمَّرَهُ (عَيَّنَهُ أميراً) طبلخاناه، ومنهم من جعله أمير عشرة إلى عشرين، ومنهم من جعله من السقاة، ثم جعل منهم سلحدارين وجمدارين، ومنهم من أضافه إلى الأمراء» .

«وأما مبانيه فكثيرة، منها ما هدمه التتار من المعاقل والحصون، وعمر بقلعة الجبل (القاهرة) دار الذهب، وبرحبة الحبارج قبه عظيمة محمولة على اثني عشر عموداً من الرخام الملون، وصوّر فيها سائر حاشيته وأمرائه على هيئتهم،وعمر طبقيتين على رحبة الجامع، وغشا برج الزاوية المجاور لباب السير، وأخرج منه روشناً (نافذة)، وبنى عليه قبة، وزخرف سقفها، وانشأ بجواره أطباقا للمماليك.

وأنشأ برحبة باب القلعة داراً كبيرة لولده الملك السعيد، كما أنشأ قناطر وجسوراً، ومنها قنطرة السباع. وأنشأ الميدان بالبورجي، ونقل إليه النخيل بالثمن الزائد من الديار المصرية، فكانت أجرة نقله ١٦٠٠٠ دينار، وانشأ له المناظر والبيوتات والقاعات .

وجدد جامع الأنوار والجامع الأزهر (يذكر أن عز الدين أيدمر الحلي تبرع بمبلغ عظيم من المال في إصلاح الجامع الأزهر في ٦٦٥ هـ/١٢٦٧م ، وأن الملك الظاهر أطلق أيضاً جملة من المال لعمارته في تلك السنة). وبنى جامع العافية بالحسينية،وأنفق عليه ألف ألف دينار، وأنشأ قريباً منه زاوية الشيخ خضر وحماماً وطاحوناً وفرناً.

وعَمّرَ بالمقياس (مستوى مياه النيل) قبة رفيعة مزخرفة، وأنشأ جوامع بالديار المصرية، وجدد قلعة الروضة (كان الملك المعز أيبك قد هدمها)، وقلعة العمودين ببرقة وعمر قلعة السويس، وعمر جسراً بالقليوبية، وحفر خليج الإسكندرية، وكان قد ارتدم بالطين.

وتمم عمارة حرم رسول الله، وعمل منبره، وجعل للضريح النبوي درابزيناً، وذهّب سقوفه وجددها وبعض حيطانه، وجدد البيمارستان بالمدينة النبوية، ونقل إليه سائر المعاجين والأكحال والأشربة، وبعث إليه طبيباً من الديار المصرية. وتفصيل ذلك أن الملك الظاهر جهّز في ٦٦١هـ / ١٢٦٣م صناعاً وأخشاباً وآلات كبيرة لعمارة مسجد رسول الله بعد حريقه، فطيف بتلك الأخشاب والآلات بمصر فرحة وتعظيماً لشأنها، ثم ساروا بها إلى المدينة المنورة. وفي ٦٦٣ هـ/١٢٦٥م بعث بأخشاب ورصاص وآلات كثيرة، وأرسل منبراً فنصب هناك. وفي ٦٦٨ هـ/١٢٧٠م أرسل السلطان الدرابزينات إلى الحجرة النبوية، وأمر أن تُقام حول القبر صيانة له، وعمل لها أبواباً تفتح وتغلق من الديار المصرية، فركب ذلك عليها.

وجدد في الخليل قبته (الحرم الإبراهيمي) ورمّ شعثه،

وأصلح أبوابه ومناصبه، وبيَّضه وزاد في راتبه المجري على قوامه ومؤذنيه وإمامه، ورتّب له من مال البلد ما يجري على المقيمين به والواردين عليه.

وجدد بالقدس الشريف ما كان تهدم من قبة الصخرة، وجدد قبة السلسلة وزخرفها، وأنشأ بها خاناً هائلاً للسبيل نقل بابه من دهليز كان للخلفاء المصريين (الفاطميين) بالقاهرة، وبنى به مسجداً وطاحوناً وفرناً وبستاناً وجعل للواردين إليه أشياء تصرف إليهم في نفقة وإصلاح أمتعة.

وبنى على قبر موسى عليه السلام قبة ومسجداً، وهو عند الكثيب الأحمر قبل أريحا، ووقف عليه وقفاً. وبنى على قبر أبي عبيدة بن الجراح مشهداً، ومكانه الغور بعمتا. وجدد بالكرك برجين صغيرين، ووسع عمارة مشهد جعفر الطيار، ووقف عليه وقفاً زيادة على وقفه على الزائرين له والوافدين إليه.

وعَمّرَ جسوراً بقرية دامية بالغور على نهر الشريعة (الأردن)، ووقف عليه وقفاً برسم ما عساه يتهدم منه. وأنشأ جسوراً كثيرة بالغور والساحل، وجدد جامع الرملة وأصلح مصانعها، وأصلح جامع النبي، ووقف عليه وقفاً، وبنى في طريقها وأصلحه، وكذلك جامع زرعين وما عداه من جوامع البلاد الساحلية التي كانت بأيدي الفرنج (الصليبيين).

جدد باشورة لقلعة صفد، وأنشأها بالحجر الهرقلي، وعمر لها أبراجاً وبدنات وصنع بغلات مصفحة دائر الباشورة بالحجر المنحوت، وعمل لأبراجها طلاقات (فتحات جدارية لإطلاق السهام وسواها). وأنشأ بالقلعة صهريجاً كبيراً مدرجاً من أربع جهاته، وبنى عليه برجاً زائد الارتفاع قيل ارتفاعه مائة ذراع، بحيث أن الواقف عليه يرى الماشي على الخندق داير القلعة. وبنى تحت البرج الذي للقلعة حماماً، وأنشأ ربضاً (ربضاً) ثانياً، وجمع بينهما. وبنى به حماماً ودار لنائب السلطنة وبرجاً نحو الباب.

وكانت التتار قد خَرَّبَت قلعة الصبيبة، ولم يبقوا منها إلا الأثر، فجددها وأنشأها، وبجامعها منارة، وبنى بها داراً لنائب السلطنة، وعمل جسراً يمشي عليه إلى القلعة.

وكان التتار قد هدموا شرفات قلعة دمشق ورؤوس أبراجها، فجدد ذلك كله وبنى فوق برج الزاوية، المطل على الميادين وسوق الخيل، طارمة (بيت خشبي كالقبة) كبيرة، وجدد دهان سقوفها. وبنى حماماً خارج باب النصر بدمشق، وجدد ثلاثة إصطبلات على الشرف الأعلى، وبنى القصر الأبلق بالميدان، وما حوله من العمائر.

وجدد مشهد زين العابدين بجامع دمشق، وأمر بترخيم

الحائط الشمالي، وتجديد باب البريد (الباب الغربي للجامع الأموي)، وفرشه بالبلاط. وردم شعث مغارة الدم (في لحف جبل قاسيون، فيها حجر عليه شيء من الدم يزعم أنه الحجر الذي قتل به قابيل أخاه هابيل). وبنى دور ضيافة برسم الرسل والواردين والوافدين مجاورة للحمام وسوق الخيل.

وجدد ما كان التتار قد هدموه من قلعة صرخد، وأصلح جامعها ومساجدها، وكذلك فعل ببصرى وعجلون والصلت. وجدد ما كان التتر هدموه من قلعة بعلبك، وجدد بابها والدركاه. وجدد قبر نوح بالكرك، وعمل حول الضريح درابزيناً.

وجدد أسوار حصن الأكراد (قلعة الحصن)، وعمر قلعتها، وكانت قد هدمت من المجانيق، عقدها حنايا، وحال بينها وبين المدينة بخندق، وبنى عليها أبرجه شاهقة بطلاقات (وبنى بها جامعاً للجمعة، وانشأ بالربض أيضاَ جامعاً ومساجد وخانات كبيرة وأسواقاً عدة).

وجدَّدَ حصن عكار وزاد أبرجته، وبنى به جامعاً وكذلك بربضه ومساجد، وجدد خان المحيدثه وترتب فيه خفراً، وحماماً (زاجلاً)، لنقل ما يتجدد من أخبار المسافرين. وبنى قصر القفول شرقي دمشق، إلى المناخ إلى قارا إلى حمص،

عدة أبرجة ورتب فيها الحمام الزاجل والخفراء، وكذلك من دمشق إلى تدمر والرحبة إلى الفرات.

وجدد سفح قلعة حمص والدور السلطانية بها وبالبلد ، وأنشأ بها جامعاً. وأنشأ شميميس بجملتها، وأصلح قلعة شيزر، وقلعتي الشغر وبكاس، وقلعة بلاطنس (المهيلبة)، وأنشأ بها جامعاُ. وبنى في قلاع الإسماعيلية الثمان جوامع. وبنى ما هدمه التتار من قلعة عيناب والراوندن، وبنى بأنطاكية جامعاً موضع الكنيسة، وكذلك ببغراس. واعتنى بقلعة البيره، وبنى فيها أبرجه، ووسع خندقها، وجدد جامعها، وأتقن بناها وشيدها. وأنشأ بالميدان الأخضر شمالي حلب مصطبة كبيرة مُرًخَّمَة، وأنشأ داراً تحت القلعة.

وبُنِيَ في أيامه بالديار المصرية ما لم يُبنَ في أيام الخلفاء المصريين (الفاطميين)، ولا الملوك من بني أيوب، من الأبنية، والرباع، والخانات، والقواسير (جمع قيسارية هي قاعة كبيرة للباعة والحرفيين)، والدور، والمساجد، وحياض السبيل، وكل ذلك من كثرة عدله وإنصافه للرعية، والنظر في أمورهم، وإنصاف الضعيف من المستضعف، والذود عنهم من العدو المخذول .

وقد عُدَّ القصر الأبلق الذي بناه الملك الظاهر سنة

٦٦٨هــ /١٢٧٠م في المرجة بدمشق نموذجاً لفن العمارة المملوكية، ووصف بأنه كان من وجه الأرض إلى نهاية أعلاه (ملبساً) بالحجر الأسود والأصفر، مدماكاً من هذا، ومدماكاً من ذاك، بتأليف غريب وإحكام عجيب، ولذلك سمي بالقصر الأبلق.

وكان على واجهته مائة أسد منزلة صورها بأسود في أبيض، وعلى (الواجهة) الشمالية اثنا عشر أسداً منزلة صورها بأبيض في أسود. ويدخل من دركاه له على جسر راكباً بعقد على مجرى الوادي إلى إيوان براني، يطل على الميدان القبلي، استجده آقوش الأفرم زمان نيابته بها (دمشق).

ثم يدخل إلى القصر من دهاليز فسيحة. (وهو يشتمل) على قاعات ملوكية، تستوقف الأبصار، وتستوهب الشموس من أشعتها الأنوار، بالرخام الملون قايماً ونايماً في مفارشها وصدورها وأعاليها وأسفلها، مموهة بالذهب واللازورد (أحجار كريمة زرقاء أو بنفسجية)، وبالدار الكبرى، بها إيوانان متقابلان، تطل شبابيك شرقيهما على الميدان الأخضر (ساحة المرجة حالياً) الممتد، وغربيهما على شاطئ الوادي المخضر والنهري، وكأنه درابيب الفضة، وله

الرفارف العالية المناغية للسحب تشرف من جهاتها الأربع على المدينة والغوطة والوادي، كامل المنافع بالبيوت الملوكية، والإصطبلات السلطانية، والحمام، والمنافع المكملة لساير الأغراض.

وتجاه باب القصر باب من أرحبته إلى الميدان الشمالي على الشرفين المقدم ذكرهما، أبنية جليلة من بيوت ومناظر ومساجد ومدارس وربط وخوانق وزوايا وحمامات ممتدة على جانبين ممتدين طول الوادي. وعلى مثال هذا الصرح المعماري، بنى السلطان الناصر محمد بن قلاوون القصر الأبلق بقلعة الجبل بالقاهرة. ووصف القصر الأبلق بدمشق بعبارةً بليغةً يبهر الناظر حسن معناه، ولا يقدر على وصف محاسنه من يراه».

وقد أنجز بناءه إبراهيم بن غنائم المهندس، وهو ذاته الذي قام ببناء المدرسة الظاهرية الجوانية بدمشق، حيث ضريح الملك الظاهر. استمر بناء القصر الأبلق عامراً ينزله الملوك إلى أن هدمه تيمورلنك في عام ٨٠٣هـ /١٤٠٠م أثناء اجتياحه دمشق، وفي القرن السادس عشر قامت على أنقاض القصر الأبلق التكية السليمانية، التي ينظر إليها، بأنها أجل أثر عثماني في دمشق.

ويختتم ابن تغري بردي ترجمته المستفيضة للملك الظاهر بذكر ما كان ينوب دولته من الكلف (المصاريف العامة) فيقول: «كانت عدة العساكر بالديار المصرية أيام الملك الكامل محمد وولده الملك الصالح أيوب عشرة آلاف فارس، فضاعفها أربعة أضعاف.

وكان هؤلاء الذين قبله العشرة آلاف مقتصدين في الملبوس والنفقات والعدد، وهؤلاء (أعني عسكر الملك الظاهر) الأربعين ألفاً كانوا بالضد من ذلك، وكانت كلف ما يلوذ بهم من إقطاعهم، وهؤلاء كلفهم على الملك الظاهر، ولذلك تضاعفت الكلف في أيامه... هذا خلاف الطوارئ التي كانت تفد عليه ، فما يمكن حصرها. وكلف أسفاره، وتجديد السلاح، وما كان عليه من الجوامك والجرايات لمماليكه، ولأرباب الخدم، فكان ديوانه يفي بذلك كله، ويحمل لحاصله جملة كبيرة في السنة من الذهب... وقد أَطَلْتُ (ابن تغري بردي) في ترجمته (الملك الظاهر)، وهو مستحق لذلك، لأنه فرع فاق أصله كونه من جملة مماليك الملك الصالح نجم الدين أيوب فزادت محاسنه .

ويعجبني في هذا المعنى (مقالة لابن هبة الاصبهاني) وهي : «ليس الشريف من تطاول وتكاثر، إنما الشريف من

تطول وآثر، وليس المحسن من روى القرآن بل إنما المحسن من أروى الظمآن ، وليس البر إبانة الحروف بالإمالة والإشباع، ولكن البر إغاثة الملهوف بالإنالة والإشباع، ولا خير في زَكّاء (من يكثر إعطاء الزكاة) لا يسدي معروفاً، ولا بركة في لَبِنَة (غزيرة الحليب) لا تروي خروفاً. فواهاً لك لمن تدخر أموالك، أنفِق أَلفَكَ قبل أن يقسم خلفك، إن منازل الخلق سواسية إلا من يد مواسية، فأرفعهم أنفعهم، وأسودهم أجودهم، وأفضلهم أبذلهم، وخير الناس من سقى ملواحاً (العطشان). والكرم نوعان، أحسنهما إطعام الجوعان، والحازم من قدم الزاد لعقبة العقبي، وأتى المال على حبه ذوي القربى..».

هذا الجرد الذي يقدمه لنا مؤلفون من العصر المملوكي، ويعددون فيه أهم أعمال الملك الظاهر أثناء السنوات السبعَ عشرة التي قضاها في الحكم ،يبين أننا أمام عقلية قادرة على أن تكون فعالة على مختلف الأصعدة.

فرغم انشغاله الدائم بردع المعتدين، وتحرير الأرض، وإرساء دعائم الوحدة، وتدعيم الجبهة الداخلية، فقد كان حريصاً على إتاحة الإمكانيات للاقتصاد أن يزدهر، ويفسح المجال لتمويل الحركة الدائبة للجيوش، وللحركة العمرانية التي شملت معظم أرجاء الدولة المترامية الأطراف.

وتنوعت الأعمال العمرانية من الأبنية الدينية والتعليمية مثل المساجد والمدارس والرُبُط (بيوت لنزول الغرباء) والخانقاهات (بيوت الصوفية)، والعمارة العسكرية والعامة والإنشاءات على الطرق، من جسور وقناطر وترع وسواها.

إنها صورة عن قيادة استطاعت أن تؤسس الدولة القوية، وهي قادرة على بناء مؤسسات تعبر عن هذه القوة. والدولة القوية كانت على الدوام محط جهد الملك الظاهر، الذي كان بوسعه أن يضرب الدراهم والدنانير الجيدة الخالصة على النصح والمعاملة الجيدة الجارية بين الناس.

في الواقع كان الملك الظاهر أكثر إنجازاً من معظم سلاطين المماليك، وأقدرهم على القرار بشأن الأوضاع الخطيرة التي شهدتها المنطقة. فهو بحق قائد يكاد يكون خلق لمواجهة الشدائد، وللنهوض من الكبوة، وشحذ الهمة.

نعم إنه قائد تاريخي، استطاع بالوحدة والمقاومة أن يذود عن حياض الأمة، ويحمي مقدساتها، ويحرر الأرض. وبذلك لا نجافي الحقيقة إذا ما قارناه بصلاح الدين الأيوبي، لكونه قائداً وحدوياً ومجاهداً في سبيل التحرير من الاستعمار الاستيطاني.

الفهرس

الصفحة

الصفحة

الطبعة الأولى / ٢٠١١م
عدد الطبع ٢٠٠٠ نسخة

هل نتحدث عن الملك الظاهر بيبرس الفتى الذي شرده الغزو المغولي، وكان مصيره الاستشراق، ليجد بعدئذٍ في الشام ومصر موطناً جديداً يرتقي فيه أعلى المناصب، وليحقق أمجاداً سياسية وعسكرية، ويصبح رمزاً لمرحلة مضيئة من تاريخ الكفاح ضد الغزاة والمستعمرين؟

أم نتحدث عن القائد الذي حرر الشام من المغول؟

أم الديبلوماسي والقائد الاستراتيجي؟

أم عن الملك الذي اهتم بالعمران وحَرِص على أمن الوطن والمواطن، وعُرِف بروح العدالة والإنصاف، وأحسن معاملة العلماء؟

جميع هذه الأسئلة وغيرها يجيب عليها هذا الكتاب.

www.syrbook.gov.sy
مطابع وزارة الثقافة - الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠١١م
سعر النسخة ٥٠ ل.س أو ما يعادلها